بوريس فيان

العشب الأحمر

رواية

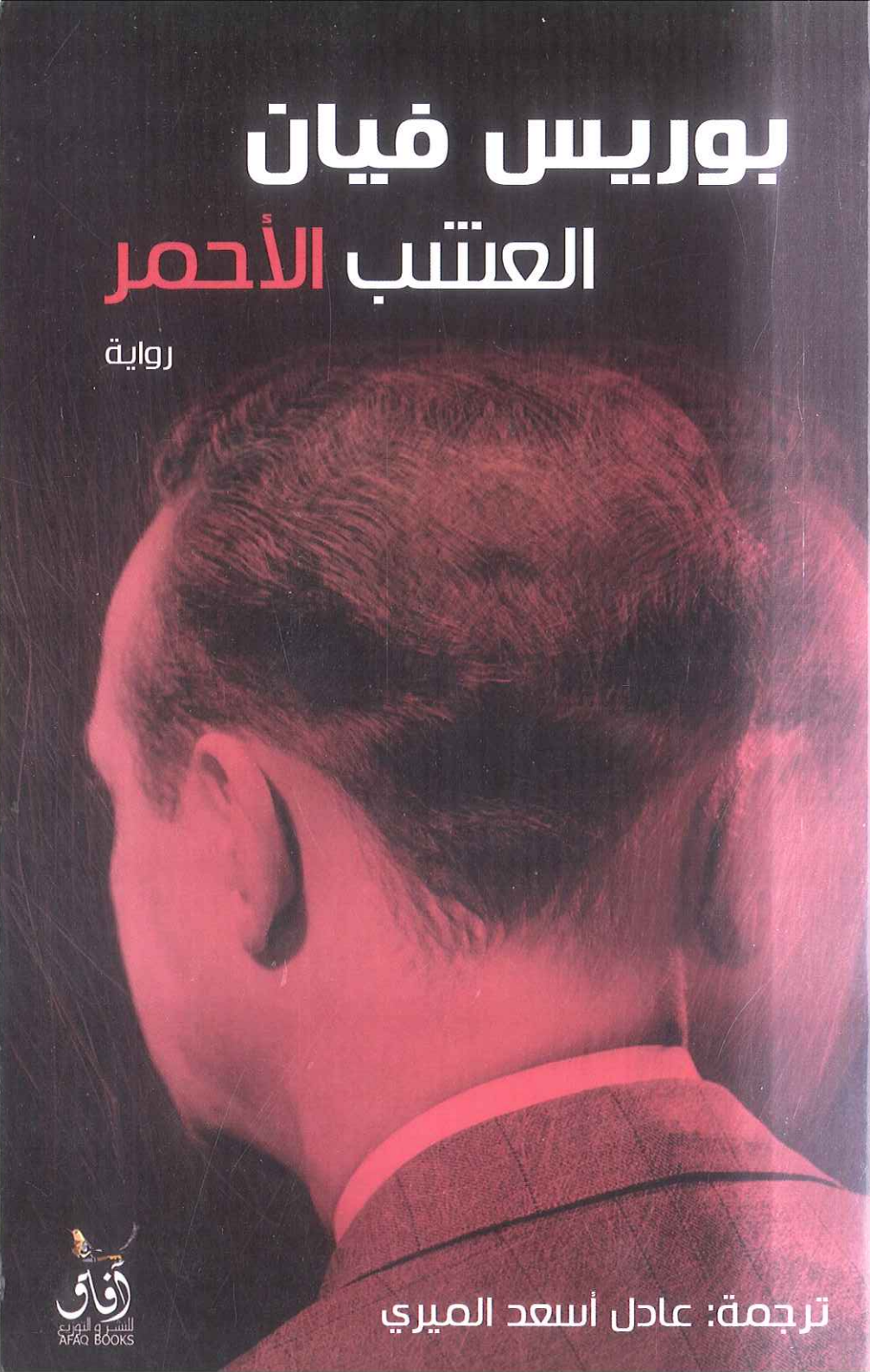

ترجمة: عادل أسعد الميري

آفاق
للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

العشب الأحمر

بوريس فيان

◆ المؤلف: بوريس فيان
◆ العنوان : العشب الأحمر
◆ ترجمة : عادل أسعد الميري
◆ طبعة آفاق الأولى 2020
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٩/١٥٧٠٦
الترقيم الدولي : ISBN
978-977-765-233-9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني – ميدان طلعت حرب- القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بوريس فيان

العشب الأحمر

رواية

ترجمة

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

فيان، بوريس.

بوريس فيان : العشب الأحمر – ترجمة: عادل أسعد الميري

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2020

224 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 15706 / 2019

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 233 – 9

1 – الأدباء (روايات)

2 – فيان، بوريس

مقدّمة المترجم

هذه الرواية هي حول فكرة بها قدر كبير من الخيال العلمي، وهي فكرة أن يكون لدى شخص عادي في حديقة منزله (ماكينة) أو سفينة فضاء، قادرة على الوصول إلى السماء، ويستعملها الشخص في الذهاب والإياب بين الأرض والسماء عدّة مرات. وهي فكرة سبق علاجها لدى عدد من أدباء القرنين التاسع عشر والعشرين، مثل جول فيرن في فرنسا، وإتش جي ويلز في إنجلترا.

هذا بالإضافة إلى أن الفصول التي تعالج الحياة العادية للبطل وولف، في مدينته التي لا نعرف لها اسمًا، مثل فصول (المغرمين العاشقين)، و(الألعاب)، و(الكهوف)، بها الكثير من الغرائبية. ناهيك عن أشياء أخرى غرائبية، مثل الكلب الذي يتحدّث بلغة البشر، وتدور في ذهنه أفكار بشرية، وهذا بالتحديد هو من تأثير الفولكلور الشعبي، مثل الحكايات على لسان الحيوانات لإيسوب الإغريقي، ولهانز كريستيان أندرسون الدانمركي، وخرافات لا فونتان الفرنسي.

لكل ذلك كان من الصعب تصنيف هذه الرواية، وتبويبها تحت صنف أدبي محدّد، إلّا أن نقّاد الأدب غالبًا اعتبروها نموذجًا للنوع الأدبي المعروف باسم (الخيال العلمي)، خاصة وأن مهنة هذا المؤلّف

بوريس فيان هي الهندسة الميكانيكية، وقد تخرّج من مدرسة الفنون والصنائع العليا في باريس. إلّا أن هذا الوصف (بالخيال العلمي) وحده غير كافٍ على الإطلاق، لإعطاء هذه الرواية حقّها كاملًا.

عندما يصل وولف بطل الرواية، إلى السماء مرّات متتالية، يقابل هناك في كل مرّة شخصيات مجهولة، تقوم بمحاسبته على أفعاله الأرضية، كأنه أمام لجنة قضاة العالم الآخر في مصر القديمة، أو كأنه في يوم الحساب الأخير أمام الله وملائكته، أو كأنه في مطهر دانتي *Purgatorium*.

يحاسبه أولًا رجل عجوز عن علاقته بوالديه، ويحاسبه ثانيًا قسّ في كنيسة عن معتقداته الدينية، وعن كشف حساب سنواته الدراسية، حتى المرحلة الجامعية، وتحاسبه ثالثًا امرأتان عن علاقاته النسائية. هذه الأجزاء من الرواية هي السبب الحقيقي وراء الدافع في قيامي بترجمتها؛ إذ وجدت أن آرائي تتفق مع آراء المؤلّف بوريس فيان، في كل ما ذكره عن الكنائس، وعن التربية الدينية في المدارس، وعن المناهج المدرسية، وعن التربية الخاطئة التي تلقّاها في منزل والديه، وعن علاقاته بالنساء.

هذه الرواية هي في الحقيقة نوع من السيرة الذاتية، المستترة خلف هذا الشكل الروائي؛ إذ بعد وفاة المؤلّف بوريس فيان *Boris Vian* المبكّرة، سنة ١٩٥٩ في سن التاسعة والثلاثين، استطاع نقّاد الأدب العثور داخل هذه الرواية، على الكثير من عناصر حياته الخاصة، التي حاول إخفاء بعضها أثناء حياته.

الفصل الأول

الشبح

(١)

دفع الهواء الدافئ حفنة من أوراق الشجر المتساقطة نحو نافذة الحجرة. كان (وولف) *wolf* يراقب عبر نافذة حجرته ملامح النهار التي تتكشّف. لمح حركة أغصان الشجر في حديقة المنزل مع تيّارات الهواء. ودون سبب واضح اهتزّ جسده فجأة فاتّكأ بيديه على حافة النافذة. عند مشيه فوق خشب أرضية الحجرة، أحدثت الألواح الخشبية نفس صريرها المعتاد، في نفس المواضع المعتادة. حاول أن يفتح باب الحجرة ليخرج منها، ثم يغلقه خلفه، دون أن يصدر عن ذلك المزيد من الضوضاء.

نزل درجات السلّم الخشبي إلى الطابق الأرضي، بخفّة حركة غير مسموعة، ثم خرج من باب المنزل. وضع قدميه فوق الممرّ المصنوع من قوالب الطوب الأحمر المدكوكة. تحفّ بهذا الممر من الجانبين

نباتات ذات أشواك تجرح اليدّ إذا لامستها. كثيرًا ما تساءل لماذا وضعت هذه النباتات المؤذية هنا.

هذا الممرّ قاد وولف بعد مائة خطوة إلى [المربّع] الذي يقع في وسط منطقة مربّعة الشكل، محاطة بسور قليل الارتفاع، لا يمنع المتطفّلين من رؤية ما بداخله. السور أضلاعه متساوية الطول. في قلب [المربّع] توجد الماكينة [الآلة]، وهي بناء يرتفع كثيرًا فوق مستوى سور المربّع، من معدن صلب رمادي اللون، يلمع بأضواء فضّية عندما تسقط عليه أشعّة الشمس. في تلك الحالات تبدو الماكينة من بعيد كسكّين يقطع السماء.

لمح وولف مساعده (سافير) الحِرَفي وهو يعمل في تجهيز محرّك [الآلة]. بدا له كما لو كان مساعده المنحني على أجزاء الآلة، مثل حشرة خنفساء تلتهم أوراق الشجر. نادى وولف على مساعده فجاوبه بأن أصدر من حنجرته صوتًا أقرب إلى صهيل الحصان. عندما اقترب وولف نظر في اتجاه الآلة، فلاحظ أن القفص المعدني قد وضع في مكانه، بين الأربعة قوائم الصلبة، وقد احتوى على كل العناصر المطلوبة، التي انضبطت في أماكنها في نظام تام.

سافير: هل جئت للتحقّق من الإنجاز؟

وولف: يبدو لي أن هذا هو موعد الانتهاء من العمل. أتمنّى ألّا يقع أي حادث يعطّل الاحتفال. إن حساباتنا مضبوطة ما لم يتدخّل في عملية الانطلاق أي عنصر خارجي.

سافير: لو وقع لنا حادث واحد مع هذه الآلة، فسأتوقّف عن العمل ميكانيكيًّا إلى نهاية حياتي.

وولف: لو وقع لنا حادث واحد .....

سافير: ما رأيك في أن نجرّب تشغيل المحرّك لنعرف النتائج؟ هل أذهب لأحضر زوجتينا حتى يمكنهما أن يحضرا أول تشغيل تجريبي للآلة؟ سآخذ الدرّاجة البخارية وأعود في ثلاث دقائق.

هذا هو ما أقدم عليه سافير فعلًا. وقفَ وولف وحده أمام الآلة يراقبها. منذ بضعة أيام وهناك الكثير من الفضوليين الذي يأتون إلى المربّع بغرض التلصّص؛ ذلك لأن موعد الاحتفال بالافتتاح الرسمي للمشروع قد اقترب. رغم انشغال أغلب أهل المدينة بالذهاب إلى (الدورادو) *Eldorado*؛ لمشاهدة موسم مباريات ملاكمة المحترفين، وعروض الفئران الفكاهية. عندما ألقى وولف بنظره ناحية السماء، بدت له كما لو أنها أصبحت قريبة جدًّا، إلى درجة أنه يستطيع لمسها إذا صعد فوق كرسيّ ومدّ إليها يده.

اقترب وولف من لوحة القيادة وجرّب بيديه الخشنتين مدى صلابتها. كانت رأسه تميل قليلًا وفقًا لعادته في النظر إلى الأشياء. ملامح وجهه الجانبية القاسية ترتسم بحدّة على خلفية من الصفائح المعدنية. التصق قميصه الكتّاني الأبيض وبنطاله الأزرق بجسده بسبب الرياح القويّة. شعر ببعض القلق أثناء وقوفه هكذا منتظرًا عودة سافير والمرأتين الشابتين. اليوم يشبه بقيّة الأيام. الصوت الوحيد

الذي يصل إليه هو محركّات السيّارات التي تمرّ مسرعة فوق أسفلت الطريق الموجود خلف جدار المربع الواقع على حافة الطريق. اليوم هو إجازة رسمية، لذلك ليست هناك أيّ أصوات في المكان باستثناء صوت السيّارات.

ثم عاد من جديد صوت محرّك الدرّاجة البخارية. لم يُدِر وولف رأسه، لكنه شمّ العطر الذي تضعه زوجته. هنا تشجّع وولف وضغط على زرار التماس في الدائرة الكهربائية الخاصة بمحرّك الماكينة. بدأ المحرّك في الدوران وقد أصدر صوتًا كان له الوقع الطيّب على أذن وولف. بدأت الماكينة في التذبذب والارتعاش. استدار وولف في مكانه، فرأى زوجته (ليل) *Lile* واقفة خلفه ومعها سافير ممسكًا بيد فتاته (فولا) *Fola* التي سقط شعر رأسها على جبهتها فأخفى عينيها.

(٢)

هنا التفتوا جميعًا إلى الماكينة التي صدر عنها صوت طرقعة مرتفعة. كان الصوت بسبب انتقال عناصر الحركة إلى المرحلة الثانية من عملية تعشيق التروس. انطلق خطٌّ من الدخّان الأسود من الجزء القريب من قاعدة الماكينة يشقّ لنفسه طريقًا في شكل أخدود في تراب الموقع. ارتبكت ليل فاندفعت لتلتصق بجسد زوجها، الذي شعر على جلد فخذه، رغم قماش بنطاله ونسيج فستانها، بالحزّ الذي تتركه ملابس زوجته الداخلية على فخذها.

وولف: بدأ المحرّك في العمل.

ليل: بعد كل هذا المجهود الشاق الذي بذلته طوال كل تلك الفترة المنصرمة. ينبغي لك الآن أن تحصل على قدر من الراحة.

وولف: لا لم يحن بعد أوان الراحة. المهمّة لم تنتهِ بعد. يجب أن أجرّب بنفسي انطلاق الماكينة إلى الفضاء.

ليل: لكن قبل الانطلاق في الفضاء، من حقّ الزوجة على زوجها أن تحصل معه ولو على يوم واحد من الراحة. هل أنت لم تعُد تشتاق إليّ؟ (قالت تلك الجملة الأخيرة بقدر من دلال الأنوثة).

وولف: أريد فعلًا أن أستريح معكِ ولو إلى الغد، لكن بعد غد سيكون يوم الانطلاق إلى الفضاء.

وقف إلى جوارهما سافير وقد أخذ فتاته فولا في حضنه بين ذراعيه. وضع سافير شفتيه فوق شفتي فتاته، فشعر على الفور بطعم التوت الموجود في أحمر الشفاه الذي تستعمله، لذلك احتفظ بعينيه مغلقتين، رغم أن صوت المحرّك الدائر نقله إلى أماكن أخرى. عندما نظر سافير إلى عيني فتاته، وجد أن إنساني عينيها معلّقين على الجانبين كما تفعل الغزالات الصغيرة.

شعر سافير فجأة كما لو أن هناك شبح شخص غريب غير واضح الملامح يراقبهما من خلف أكمة شجيرات. قفز قلب سافير في صدره. أغمض عينيه وقد وضع يده اليمنى عليهما. أنصت لبضع لحظات إلى همس الكلمات المتبادلة بين وولف وزوجته. ضغط بكفّ يده على

عينيه المغلقتين حتى رأى داخلهما بقعتين من الضوء الساطع. أعاد فتح عينيه. لم يعد الرجل هناك. لم تكن فولا قد لاحظت أيّ شيء. وهو بالتالي لم يقل لها أيّ شيء.

بقيت فولا ملتصقة بجسد فتاها، وهي على نفس القدر المعتاد من خلو البال واللامبالاة. لم يقل سافير شيئًا لأنه لم يعرف ما الذي ينبغي عليه أن يقوله. التفت وولف إلى الحبيبين ومدّ ذراعه ووضعه على كتف فولا.

وولف: أنتما مدعوان الليلة على حفل عشاء في منزلنا.

سافير: جميل إذَنْ أن ننتظر هذا المساء وليمة فاخرة.

فولا: ولكن هل ستدعان (ديبون) يحضر هو الآخر هذه الوليمة؟ هذا العجوز المسكين لا يخرج أبدًا من المطبخ.

وولف: أتوقّع أن يموت قريبًا بعسر شديد في الهضم.

سافير (إلى وولف): إذَنْ لو أخذت غدًا يوم راحة لك سأكون أنا مضطرًّا إلى البقاء طوال النهار إلى جوار الماكينة.

وولف: فعلًا هذا هو ما أتوقّعه منك.

فولا (إلى وولف): هل يمكن أن أبقى أنا كذلك إلى جواره؟

وولف (ضاحكًا): بشرط عدم تخريب الماكينة.

فجأة انطلق صوت طرقعات متتالية، كانت الدليل على انتقال تروس الحركة من المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة بشكل تلقائي ذاتي.

ليل: إنها تشتغل وحدها. دعونا نذهب من هنا.

استداروا جميعًا في نفس اللحظة وقد بدا على المرأتين الشابتين الإعياء لمجرّد وقوفهما لبضع دقائق. لمحوا جميعًا ديبون بشعره الغزير رمادي اللون، وهو يندفع نحوهم بعد أن كانت الخادمة قد أطلقته من الأسر. كان يموء بدلًا من أن ينبح!

فولا: من علّمه هذا المواء؟

ليل: إنها الخادمة التي تفضّل القطط على الكلاب، وديبون لا يستطيع أن يرفض لها طلبًا، رغم أن هذا المواء يسبّب له ألمًا شديدًا في حنجرته كما صرّح لي.

في الطريق القصير عائدين إلى المنزل، أخذ سافير يد فولا في يده. استدار في مرتّين متتاليتين نصف استدارة لينظر خلفه؛ خوفًا من عودة الغريب المختبئ خلف الأكمة إلى الظهور، خوفًا من أن يتبعهم أو أن يراقبهم، حاول أن يعزي هذا إلى الخيالات، حاول أن يقول لنفسه إن إرهاق أعصابه يعود إلى ضغط مسؤولية العمل الذي ألقاه وولف على عاتقه. تركوا المربّع على بعد أكثر من مائة خطوة خلفهم على خلفية سماء غير مستقرّة. صوت زمجرة الماكينة استمر يلاحقهم حتى بعد دخولهم المنزل.

(٣)

بعد يومين. وصل وولف إلى موقع المربّع قبل وصول المسؤولين المحلّيين بدقائق قليلة. وجد أن سافير قد أحسن إعداد كل الآلات المساعدة اللازمة لعملية الانطلاق. كلّها مرصوصة بنظام تام داخل القفص الحديدي. وجد على الأرض زهرة من نوع الأزهار التي تضعها فولا في شعرها، انحنى ورفعها من على الأرض خوفًا من أن يدهسها المحلّيون بأقدامهم الغليظة، ووضعها في عروة قميصه حتى يتمكّن من شمّ عطرها دون أن يلوي عنقه.

ثم جاءت من بعيد أصوات ضوضاء موسيقية مبهمة. استطاع تمييز صوت آلات القِرَب الإسكتلندية ومعها صوت بعض آلات النفخ النحاسية. الموقع الجغرافي لمدينته يقع في حدود دائرة نفوذ موسيقى القِرَب الإسكتلندية، هذه الموسيقى تأتي إليه بمصاحبة أصوات دقّات طبول عالية جدًا. سقط جزء من حائط المربّع بسبب تدافع الأجساد بطريقة همجية تدلّ على مدى تخلّف هذا الشعب. صحيح أن الباب ضيّق، لكن لم يكن هناك داعٍ لدخولهم بهذا التدافع. كان أول من ميّزه وولف هو حاجب المحكمة الملتحي.

بدأت الثغرة في الاتساع، وزاد عدد الذين تمكنّوا من الدخول إلى موقع الماكينة. ورغم الهرج والمرج، وقفوا جميعًا في صفّين

حول الماكينة، قصار القامة في الصف الأمامي، وطوالها خلفهم، في حين تجمّعت جوقة إنشاد الكنيسة (الخورس أو الكورال) المكوّنة من عشرة رجال وعشر نساء خارج المربّع؛ إذ لم يكن المكان بداخله يتّسع لهم. بدأوا جميعًا في الصراخ والعواء والنباح بكلمات أطلقوا عليه زورًا وبهتانًا اسم النشيد المحلّي:

ها هو ذا السيّد العمدة قد وصل/ توف توف تزين/ عمدة هذه المدينة الجميلة/ توف توف تزين/ جاء خصّيصًا لأجل رؤيتكم/ توف توف تزين/ جاء لحضور الاحتفال معكم/ توف توف تزين/ وفي نفس الوقت ينبّهكم/ توف توف تزين/ إلى دفع الضرائب المتأخّرة عليكم/ توف توف تزين/ إلخ.

كان اللحن أقرب إلى المارش العسكري، الذي تمشي على إيقاعه فرق القتال إلى ساحات الوغى. أما مسألة الضرائب فمن المعروف أن شعب هذه المدينة، لديه أعلى نسبة من السكّان المتهرّبة من دفع الضرائب، من بين جميع سكّان كل المدن في هذه الدولة، لذلك لزم التنبيه. كان العمدة يعاني من ضعف في حاسة السمع، لذلك هو يضع بوقًا على إحدى أذنيه، عندما يريد الإنصات إلى ما يقال إليه، ويرفع البوق من على أذنه عندما لا يريد الإنصات. أثناء غناء النشيد كان البوق مرفوعًا.

هنا ظهرت زوجة العمدة.. هي امرأة بدينة جدًّا، حتى إنه لم تكن هناك امرأة أكثر منها بدانة في المدينة كلها، وهي رغم بدانتها

وقبح شكلها كانت تصرّ دائمًا على ارتداء ملابس فاضحة أقرب إلى الاستعراء. بالإضافة إلى ثديين هائلين يندلقان على بطنها المنتفخة. وقفت هذه المرأة فوق سيّارة مكشوفة، يهتز جسمها كله إلى اليمين وإلى اليسار مع مطبّات الطريق. لم تكن هذه السيّارة إلّا سوقًا متنقّلًا للأجبان، محمّلة بكل أنواع الأجبان التي تقوم هذه المرأة بإنتاجها في شركاتها. استغلّت المرأة مناسبة افتتاح المشروع لبيع بضاعتها، وهي بصفتها زوجة العمدة، لم يكن أحد يجرؤ على الاعتراض على تصرّفاتها، بل شعر الناس كما لو أنهم كانوا مجبرين على الشراء منها.

ثم جاءت سيّارات أخرى مختلفة محمّلة ببضائع مختلفة، منها مثلًا سيّارة بائع الخردوات الذي لم يهتم أحد ببضاعته؛ لأنه لا يمتّ بأي صلة قرابة لا للعمدة ولا لأي شخص آخر من أعضاء مجلس بلدية المدينة، رغم أنه وضع على ظهر سيّارته فتاة جميلة قامت بتوزيع الورود على الحاضرين. بشكل عام لم تعد هذه المواكب المزيّفة المفتعلة تعجب أحدًا.

(٤)

أثناء وصول أفراد الوفد الرسمي لمجلس بلدية المدينة إلى مكان وقوف وولف لتحيّته باليد، كان أفراد طاقم الحراسة الأمنية المصاحب للوفد، وهم مسلحّون بالبنادق، يمنعون الجمهور العادي من دخول المربّع، في حين كان أفراد الطاقم الفنّي المصاحب للوفد، يقومون

بنصب منصّة مسرح مكوّنة من بضعة ألواح خشبية، فوق قوائم خشبية، مزوّدة بدرجات سلّم يمكن الصعود به إلى المنصّة. لم تستغرق كل هذه المسائل إلّا بضع دقائق. بعد ذلك صعد العمدة ونائبه فوق المنصّة، وجلسا فوق الكرسيّين المعدّين لهما.

هنا حاول الموسيقيّون لفت انتباه الجمهور إلى بدء الاحتفال الرسمي، بصعود العمدة ومساعده فوق المنصّة، فقام عازف الإيقاع بقرع طبلته بشكل مستمر بصوت شديد الارتفاع، وفي نفس الوقت استعمل عازف المزمار أقوى ما لديه من أصوات حادة عنيفة، حتى إن رؤوس الحضور كانت قد انغرست داخل أكتافهم، خوفًا من صوت انفجار وشيك الوقوع.

تنفّس الجميع الصعداء بانتهاء قارع الطبول وعازف المزمار من عملهما، إلّا أن وولف وغيره من أفراد الجمهور، استمرّوا لبعض الوقت يشعرون بصمم في الأذنين. انشغل بعض الحضور بإشعال سجائرهم بأعواد ثقاب، وبعضهم الآخر برفع أطفالهم فوق أكتافهم لمشاهدة المنظر فوق المنصّة، في لحظة وقوف العمدة لإلقاء خطبته العصماء:

أيّها المواطنون الأعزّاء، لن أتحدّث إليكم عن هذه اللحظة الاستثنائية في تاريخ مدينتنا، فأنتم تعرفون دون أن أقول لكم، إن هذه هي المرّة الأولى منذ مجيء السلطة الديموقراطية الشعبية إلى الحكم، أي منذ أن انتهت إلى غير رجعة سنوات التواؤمات والتربيطات السياسية الدنيئة، والأساليب الغوغائية المريبة، التي لطّخت بالشكّ

منذ لحظة بدء الخطبة بدأ سقوط المطر، مما أدّى إلى محو الكلمات من الورقة التي كان العمدة يمسك بها في يده، كأن الأقدار تعانده، فبدأ في التهتهة. هنا ترك الورقة تسقط من يده، وتحوّل فجأة دون أي سبب منطقي، إلى سبّ تجّار الأجبان، الذين ينافسون زوجته في بيع الأجبان، متّهمًا إيّاهم بأنهم كاذبون مدّعون غشّاشون، لا يفهمون أي شيء في تصنيع الأجبان وحفظها من التلف وبيعها. عند وصول العمدة إلى هذه النقطة، انطلقت أكفّ الجمهور في تصفيق حاد بضجّة كبيرة، كأنهم متواطئون مع العمدة؛ إذ كان المقصود من هذه الضجّة غالبًا منع أحد تجّار الأجبان الموجودين ضمن الحشد، من الردّ على إهانات العمدة له ولزملائه؛ إذ بسبب هذا التصفيق لم يتمكّن أحد من الإنصات إلى ما كان هذا الشخص يريد قوله. ابتسم وولف لهذا الفاصل الفكاهي. ثم وقف نائب العمدة ليأخذ دوره هو الآخر في إلقاء خطبة عصماء:

إننا بمزيد من البهجة والحبور، نعلن عليكم اليوم أننا بكل فخر، نحيّي جهود عبقرية مهندس المدينة الأستاذ (وولف)، الذي توصّل إلى حلّ جدير بالانتباه والملاحظة، للقضاء في بلادنا على كل الصعوبات والعقبات، التي تواجه إنتاج المعادن اللازمة لصناعة الآلات. وحيث إنني لا أفهم أي شيء لا في المعادن ولا في صناعة الآلات، وكل ما أعرفه عن هذه الآلة الواقفة أمامنا الآن، أنها مستعدّة للانطلاق في الفضاء، فإني سأتوقّف هنا عن الكلام وأترك الجمهور يقترب من الآلة لمعاينتها

بنفسه، وطرح الأسئلة المناسبة على مخترعها الواقف إلى جوارها، على خلفية من موسيقى فرقة آلات النفخ النحاسية، التابعة لبلديّة مدينتنا.

(٥)

تنفّس وولف الصعداء عند انتهاء المراسم، ومغادرة آخر شخص غريب المكان، دون أن يخطر على بال أي مواطن الانتظار لمشاهدة لحظات الانطلاق. لم يعد متبقيًا أمام وولف إلّا منظر مئات الأشخاص الذين يرى ظهورهم وهم يبتعدون، بالإضافة إلى الموسيقى التي تحملها بعض التيّارات الهوائية القادمة في اتجاه المربّع. هنا ارتدى وولف الثوب الذي كان أعدّه لهذه المناسبة، وهو من القماش المبطّن بمادة تكوّن طبقة عازلة للحرارة، لاحتمال وجود انخفاض حاد في درجة حرارة الجو، عند الارتفاع مئات الكيلومترات في السماء. بالإضافة إلى:

١- خوذة معدنية فوق رأسه، لا توجد بها إلّا فتحتان للعينين.

٢- قفّازين من الجلد السميك المرن المبطنين بالفرو.

٣- حذاءين من الجلد السميك المرن المبطّنين بالفرو، بعنق مرتفع يصل إلى أسفل الركبة.

سافير: ألا تزال متفائلًا مفعمًا بالأمل؟

وولف: متفائل نعم، ولكن هناك باستمرار احتمال الفشل.

ثم لتغيير اتجاه الحديث.

وولف: أنت تحب فولا وهي تحبّك، فلماذا إذن تتردّد في الزواج بها؟

سافير: حقًّا ليست هناك أيّ موانع باستثناء ظهور بعض الخيالات التي تؤرّقني.

وولف: ما معنى هذا؟

سافير: ليس الآن.

فتح وولف باب القفص (أو الصندوق) المعدني، الذي سنطلق عليه بدءًا من الآن لفظ قمرة القيادة، أو اختصارًا لفظ (القُمْرَة). وضع إحدى قدميه على عتبتها، ووضع يديه على العتب العلوي لباب الدخول لحفظ توازن جسمه. هنا شعر في أصابع يديه بذبذبة اهتزاز المحرّك. جاءه إحساس غريب كما لو كانت حشرة ضعيفة وقعت في فخّ عنكبوت قوي. رفع يده بإشارة وداع إلى سافير، وأغلق باب القمرة خلفه. هنا تحوّل شعوره كما لو كان سجينًا في زنزانة. رغم الرياح الشديدة التي هبّت فجأة مما يمكنه أن يعوق الانطلاق، ضغط وولف على السلسلة المتتابعة من أزرار الانطلاق واحدًا بعد الآخر. كان صوت المحرّك يرتفع مع كل زرّ جديد يضغط عليه. وولف هنا كان يحاول السيطرة على سرعة تنفّسه الواقعة تحت إرادة سيطرة البشر، وسرعة دقّات قلبه غير الواقعة تحت إرادة سيطرة البشر.

* * *

الفصل الثاني

العجـوز

(١)

بدأت الماكينة في الارتفاع عن سطح الأرض، دون أن يجرؤ وولف على النظر إلى أسفل. كانت المؤشّرات أمامه في لوحة القيادة تقول إن الارتفاع هو بمئات الأمتار، ثم أصبح بآلاف الأمتار، ثم بعشرات الآلاف من الأمتار، وهو لا يجرؤ على النظر إلى شكل الأرض أسفل ماكينته. كان قبل الإقلاع قد قرّر أن يكون الشعور المسيطر عليه، هو شعور المقاتل الذاهب إلى معركة حربية، المستعد فيها للتضحية بحياته. حاول مبدئيًّا الاحتفاظ بعينيه مغلقتين، ما دام أن صوت المحرّك ظلّ طبيعيًّا، ولم يكن محتاجًا إلى النظر في لوحة المؤشّرات أمامه، للتحقّق من وجود عطب.

أما ملاحظاته على التغيّرات الجسدية التي عانى منها، فهي أولًا آلام في الركبتين.. لاحظ بعد ذلك ازدياد في معدّل ضربات القلب،

ثم أصبح تنفّسه صعبًا لقلّة الهواء في طبقات الجوّ العليا، كأنه لم يعد يستطيع أن يحصل على شهيق عميق. عندما نظر إلى اللوحة أمامه اكتشف أن مؤشّر ضغط الهواء خارج القُمْرة أصبح خفيفًا جدًّا؛ لتناقص حجم طبقات الهواء فوق جسم الماكينة، عند هذا الحدّ من الارتفاع الذي وصلت إليه.

عند النظر لأول مرّة خارج القمرة، لاحظ وجود سحابة كثيفة قاتمة اللون، تلمع كما لو أنها كانت معدنًا مصهورًا، مصبوبًا في قالب سحابة. ثم لاحظ وجود مادة سوداء تسيل على الجدران الداخلية للماكينة، مدّ يده ليتحسّسها فإذا بها قار (زفت) أسود. هناك كذلك نقاط سميكة الكثافة بلون أقرب إلى الأحمر، عندما أخذ واحدة منها على إصبعه، تماسكت وسقطت على الأرض، كما لو كانت نقطة زيت. لم يعد يستطيع البقاء واقفًا على قدميه، بسبب الآلام في ركبتيه، والارتعاش في عضلات سمّانتي الساقين فجلس.

أصيب الجسد كلّه بالتثاقل، كأنه سيميل إلى السقوط على الأرض، مع شعور بالارتخاء في العضلات، كأنها تعلن أنها لن تستطيع أن تحتفظ بالجسد واقفًا. لم يكن وولف حتى الآن قد لاحظ توقّف صوت المحرّك، بسبب انشغاله بجسده، إلّا أنه عندما نظر هنا إلى النافذة الأمامية لقمرة القيادة، وجد ما جعله يعتقد أن الماكينة لم تعد منطلقة في الفضاء، بل إنها قد استقرّت على أرض، لا يعرف كيف، ولا حتى يعرف ماهيّة هذه الأرض. بدا له كأن هناك أمامه ما يشبه خطّ أفق، يمتدّ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

لاحظ وجود طبقة رقيقة من الجليد فوق الجدران الخارجية للماكينة، إذن فالجو خارج الماكينة بارد جدًّا. ثم لاحظ بمزيد من القلق، أن هذه الطبقة الجليدية قد بدأت كذلك في الظهور على الجدران الداخلية للماكينة. هذا يعني أن الجو داخل الماكينة ليس معزولًا تمامًا عن الجو الخارجي كما كان يظنّ. بدأ يشعر بالبرودة الشديدة تغزو أطراف أصابع يديه وقدميه، رغم القفّازين والحذاءين من الجلد السميك المبطّنين بالفرو. بالإضافة إلى ظهور مادة سوداء لزجة تسيل على الجدران الداخلية لكل من القمرة والماكينة.

(٢)

كل شيء يحدث فجأة. الآن ظهر ضياء ساطع تمامًا عند منتصف خطّ الأفق. إن استمرار النظر إلى هذا الضياء لأكثر من ثانيتين يؤذي العينين، كما لو أنك كنت توجّه عينيك نحو قرص الشمس. تذكّر أن لديه منظارًا من زجاج داكن يمكنه به -لو وضعه على عينيه- أن يكسر حدّة هذا الضياء. كان هذا المنظار مثبّتًا فعلًا أعلى العينين، خارج القناع المعدني الذي يغطّي الرأس. كل ما فعله وولف هو أنه حرّك ذراعه باتجاه أعلى رأسه واستعمل يده في إسقاط المنظار فوق عينيه، ونظر إلى مصدر الضياء.

هناك وميض ضوء باهر شديد اللمعان بشكل لم يرَه من قبل. هبطت عليه من أعلى سحب كثيفة من أتربة لامعة، كما لو أن السماء

ترتجفّ، فتسقط منها هذه السحب. في الأماكن التي تخلو من السحب، أمكنه ملاحظة نفس الضياء الباهر شديد اللمعان. أغلق عينيه؛ لأن تركهما مفتوحتين، يجعله يشعر بالدوار والغثيان، رغم وجود المنظار الداكن فوقهما. أصبحت الماكينة متوقّفة تمامًا، وأدرك أنها معلّقة في الفضاء، كأنها لم تعد واقعة تحت تأثير قوانين الجاذبية، كأنه لم تعد له أيّ سيطرة عليها.

لاحظ أنه بسبب البرودة الشديدة فإن طبقة من الجليد بدأت تتراكم فوق ثيابه المعدنية. وفي لحظات شعر بنفسه شبه مقيّد الحركة. أصبحت هذه الطبقة الجليدية سميكة، إلى درجة أنه احتاج إلى مجهود عضلي لكسرها عند مفاصل الحركة، أي في أربعة مواضع عند ركبتيه وعند كوعيه. هنا بدأت شرائح من ماضي حياته تظهر أمام عينيه، كقطع أقمشة مختلفة الألوان، أو كقصاصات ورقية غير مكتملة.

أحيانًا تكون الأقمشة جميلة ملوّنة ممتلئة بالحياة، وأحيانًا أخرى أقمشة باهتة اللون حزينة. هناك لقطات ظلّت كامنة في الذاكرة، بفضل بعض الصور الفوتوغرافية الملتقطة في مناسبات خاصة، أو بعض الكلمات أو العبارات التي وردت في محادثات بخصوص شؤون لا يمكن أن تُنسى. دلالات هذا الماضي كانت واضحة أمام عينيه. إنه الماضي المرتبط بوالديه، الذي تتدافع صوره الآن من الشاشة الذهنية في خلفية الدماغ إلى أمام عينيه. في البداية جاءت الصور في شكل مجموعات من قطيع حيوانات مندفعة، دون أي نظام يسيطر عليها، أو في شكل هبوب عاصفة من الروائح والدمدمات.

(٣)

هناك صورة طفلة كانت زميلة فصل في رابعة ابتدائي، بشعر ناعم قصير، وصورة طفل كان وولف يغار منه؛ لأنها اختارته هو صديقًا لها ولم تختر وولف. صورة الأواني الفخّارية الكبيرة الحمراء اللون الموضوعة على جانبي سلّم مدخل المدرسة التي قيل لهم إن بها نباتات هندية، لذلك كان الأطفال يسمّونها الهنود الحمر. المشكلة التي عانى منها في ذلك السنّ، هي الشكّ الدائم في كيفية هجاء بعض الكلمات الصعبة المركّبة.

هواية اصطياد دود الأرض مع بقيّة التلاميذ باستعمال أذرع مقشّات كنس الأرضيّات. رحلة مدرسية لزيارة القبّة السماوية (البلانيتاريوم) *Planetarium* للتعرّف على نجوم السماء التي تظهر في سماء مدينتهم ليلًا. هي قاعة ضخمة الحجم مستديرة، تعلوها قبّة ضخمة بنفس حجم القاعة، تعرض عليها صور نجوم سماء المدينة بواسطة أجهزة عرض (بروجيكتور) *Projector* . التعاسة التي كنا نحن التلاميذ نشعر بها، ونحن نشاهد سقوط ثمار أشجار الكستناء (أبو فروة)، ونحن نجلس في الفصل لا نستطيع أن نمدّ أيدينا إلى الفناء لنحصل عليها. مفاجأة غزو الفئران للمدرسة أثناء الإجازة الصيفية، وسعادتنا بقرار تأجيل العودة إلى الفصول أسبوعًا، ريثما تتخلّص إدارة المدرسة من الفئران.

باستثناء ذكريات الطفولة ليست هناك ذكريات أخرى نقيّة خالصة باقية من أي مرحلة أخرى من العمر؛ لأن ذكريات الفترات اللاحقة تشوبها شوائب تذوب فيها وتلتحم بها، فتصبح الحقائق القديمة غير واضحة الملامح. حتى ذكريات الطفولة يمكنها أن تتأثّر بالحالة النفسية التي تكون عليها عندما تحاول استعادتها. فلا شيء في حياة المرء يظلّ باقيًا على حاله، إلّا إذا استطاع الإنسان أن يعيش وهو مغلق العينين والأذنين.

استمرّ وولف في إغلاق عينيه حتى يستمر تداعي الصور على ذاكرته، قدر الإمكان سداسية الأبعاد، بالطول والعرض والعمق والرائحة والصوت واللون. ثم حرّك ذراعه كما لو كان بشكل لا إرادي، وضغط على أحد الأزرار فانفتحت قمرة القيادة. وجد نفسه يفكّ الأحزمة التي كانت تربطه، ويضع قدمه في المساحة المتاحة أمامه، رغم أنها بدت له مثل قوام السُحُب. وخرج من الماكينة.

(٤)

وجد وولف أمامه ممرًّا منحدرًا انحدارًا خفيفًا فمشى فيه. الأرض على جانبي الممرّ صلبة القوام قاتمة اللون. أرض الممرّ ترابية وذات لون أقلّ قتامة. جذوع الأشجار القريبة من الممرّ تميل إلى اللون الأحمر، لذلك اعتقد وولف أنها أشجار كستناء هندي. ثمار هذه الأشجار يغلب عليه اللونان البنّي الفاتح والأخضر الداكن. ظهرت

مساحات تزداد اتساعًا من العشب المُهْمَل الذي ينمو وحده دون أن يحصل على أيّ عناية. أغلب هذا العشب كان أحمر اللون. هناك بقع من تجمّعات الأشواك تظهر بشكل متفرّق.

يبدو له الآن أنه يرى أن هذا الممرّ يؤدّي إلى بعض المباني المهدّمة. يحيط بالمباني نبات العلّيق قليل الارتفاع. على مقعد حجري إلى جوار الخرائب رأى وولف رجلًا عجوزًا جالسًا وهو يرتدي ملابس كتّانية بيضاء. عندما اقترب منه وولف شاهد كيف أن لحيته الطويلة البيضاء تلتفّ حول جسمه وتسقط حتى قدميه. إلى جوار هذا الرجل على المقعد الحجري وجد وولف لوحة نحاسية صغيرة كتبت عليها بحروف سوداء عبارة (الرجل الجوهرة).

جلد وجه هذا الرجل متغضّن مليء بالأخاديد. الأنف كبير بمنخارين واسعين تخرج منهما شعيرات كثيفة، الحاجبان كثيفان، شعر الرأس والذقن شديد البياض كأنه مصنوع من مادة قطنية، اليدان موضوعان فوق الركبتين، أصابع اليدين مشوّهة بسبب الأمراض التقليدية المعتادة لمرحلة الشيخوخة مثل النقرس والتهاب الأعصاب الطرفية، أظافر الأصابع كبيرة الحجم ومربّعة الشكل، القدمان مضمومان وموضوعان في صندلين بنعلين خفيفين، ملابس الرجل خفيفة لا تتناسب مع برودة الجوّ.

(٥)

العجوز: إذن فأنت الأستاذ وولف.

وولف: وأنت الرجل الجوهرة.

العجوز: يا ترى ماذا تريد أن تقول لي؟

وولف: فيما ترغب أنت أن أحدّثك؟

استدار العجوز وأخرج من كومة ملفّات خلفه ملفًّا يحتوي على حزمة أوراق. لم يكن وولف قد لاحظ وجود كل هذه الملفّات على الأرض خلف العجوز.

العجوز: إذن أنت من مواليد سنة .... في مدينة .... لوالدين اسمهما .... و.... ومهنتك المسجّلة هنا في الأوراق أمامي هي الهندسة الميكانيكية، فأنت حصلت على شهادة مدرسة البولي تكنيك (التقنيّات المتعدّدة) بباريس.

وولف: نعم كل هذه المعلومات صحيحة.

العجوز: جميل جدًّا، إذَنْ هل يمكنك أن تذكر لي الآن ببعض التفصيل، أول الأعراض التي خبرتها في حياتك، لما يمكن تسميته بالانشقاق الديني عن الكنيسة، وخروجك على الأعراف التقليدية، وعدم رغبتك في الامتثال لأي مذهب ديني، بل فلأقل الإنكار التام لكل مبادئ الديانة المسيحية الكاثوليكية برمّتها.

وولف: ماذا يمكن أن يثير اهتمامك أنت أيها العجوز، فيما تسمّيه موقفي الانشقاقي؟

العجوز (بقدر من التعالي كما لو كان محقّقًا في مركز الشرطة): أعتقد أنهم علّموك في طفولتك أن تردّ على كبار السنّ بشكل مختلف عن هذا، بحيث تظهر لهم قدرًا أكبر من الاحترام.

وولف: لا أفهم كيف لهذا الموضوع أن يهمّك. ثم إنني لم أكن أبدًا منشقًّا على الكنيسة، بل حتى إنني لم أتخذ موقفًا احتجاجيًّا على تقاليدها، كل ما في الموضوع هو أنني قرّرت تجاهل المعتقدات والممارسات التي بدت لي غير ذات معنى.

العجوز: إذن فلنبدأ بذكر هذه الأشياء التي تجاهلتها.

وولف: أيها السيّد أنا لا أعرف بأي حقّ تسمح لنفسك بأن توجّه لي كل هذه الأسئلة، بينما أنا أحاول أن أتعاون معك قدر استطاعتي، كما أفعل عادة مع كل المتقدّمين في السن رأفةً بهم. إذَنْ فلأبدأ بذكر هذه الحقيقة، وهي أنني طوال حياتي، كنت أحاول أن أكون موضوعيًّا، بخصوص الأشياء التي وجدت أنها تتعارض مع طبيعة شخصيّتي ومع طريقة تفكيري.

العجوز: هذا غير موجود في الملفّ الذي في يدي، فهو يقول إنك لم تكن طول الوقت على هذا القدر من الموضوعية. انتظر لحظة وسأعثر لك على أحد الأمثلة على ما أقول.

وولف: كنت ألعب ملك وكتابة بالعملات المعدنية.

العجوز: لا تكن سخيفًا، فالمسألة أكبر من ذلك، أو فلتقل لي إذن لماذا جئت إلى هنا لتراني؟

وولف: أنا لا أستطيع أن أحكي تفاصيل حياتي لأي شخص، بالإضافة إلى أنّك تبدو لي غير منظّم في تفكيرك، فلو كانت لديك خطّة واضحة لكنت قد تجاوبت معك أكثر من هذا. لماذا لا تكون أسئلتك مباشرة، حتى أستطيع أن أقدّم لك إجابات مباشرة؟

العجوز (وقد نظر إلى وولف بطريقة عدائية واضحة): إذن فأنت تظن أنني عشوائي، وأنني موجود هنا الآن أمامك بشكل اعتباطي.

وولف: نعم كل هذا صحيح وواضح.

العجوز: هل تعرف ما هو حجر الرّحى؟

وولف: أنا لم أدرس هذا الموضوع بشكل خاص.

العجوز: هو الحجر الذي يضع الناس تحته الحبوب التي يريدون سحقها وتحويلها إلى دقيق. وغالبًا ما يتعاون عدد من الناس أثناء القيام بهذه العملية، فهناك أولًا من يضع الحبوب تحت الحجر، وهناك ثانيًا من يقوم بإدارة الحجر لسحق الحبوب، كما أن هناك ثالثًا من يسحب الحبوب من تحت الحجر بعد تمام سحقها.

وولف: وماذا بعد هذه القصّة الطويلة؟

العجوز: أنا أعمل ضمن فريق عمل يقوم كل فرد فيه بأداء دور محدّد، والآن سأوجّه إليك الأسئلة المباشرة التي تقول إنك تفضّلها على غيرها.

وولف: إذن ادخل مباشرة في الموضوع.

(٦)

العجوز: الخطّة واضحة تمامًا وفقًا لعنصرين رئيسين، الأول هو أنك ولدت في بلد يقع في غرب أوروبا، على قدر كبير من الحضارة والتقدّم، والثاني هو أنك ولدت في أسرة مسيحية كاثوليكية مؤمنة، تمارس طقوس هذه الكنيسة باقتناع تام، لذلك ستكون الأسئلة التي أطرحها عليك هي التالية وبهذا الترتيب:

١- كيف تطوّرت علاقاتك بأفراد أسرتك؟ خاصة بوالديك؟

٢- كيف كان سلوكك خلال مراحل الدراسة المختلفة حتى وصولك إلى المرحلة الجامعية؟

٣- ما هي موضوعات اهتماماتك منذ تخرّجك في الجامعة ووصولًا إلى المرحلة الحالية؟

٤- ما هي خبراتك الأولى مع مسألة الإيمان المسيحي؟

٥- ما هي تجاربك الجنسية منذ مرحلة المراهقة حتى الوقت الحالي الذي يفترض فيه وصولك إلى سنّ النضج؟

٦- ما هي أنشطتك ومساهماتك الحالية كعضو عامل في مجتمع بشري؟

الفصل الثالث

الأبّ والأمّ

(١)

أنت وفقًا للدفاتر التي في يدي لم تنقطع علاقتك بالكنيسة في فترة ما بعد البلوغ، التي فيها تنقطع عادة علاقات الأشخاص من جيلك ومن طبقتك، بكل ما له صلة بالسلطتين الأبوية والكنسية. إذا كانت هذه الخطّة تروق لك، يمكننا إذن أن نبدأ بالإجابة على السؤال الأول، عن تطوّر علاقتك بأفراد أسرتك.

وولف: إن كلّ الآباء والأمّهات يدّعون لأنفسهم مزايا ليست لهم.

العجوز: أنت بهذه الطريقة تلجأ إلى ردود لا يصحّ أن تصدر إلّا عن الأطفال.

وولف: كان والديّ طيّبين، لكن الكثير من زملاء تلك المرحلة السنّية، كانوا يكرهون والديهم؛ لأن الوالد السيئ المستبدّ القاسي

البخيل الشرّير، يجعل ابنه يفقد جزءًا كبيرًا من طاقته في محاولة مقاومة التأثير السيئ للأب. وهكذا تستمر العداوة بينهما إلى نهاية العمر، ولا مجال على الإطلاق للإصلاح بينهما، حتى عندما يصبح الابن رجلًا ناضجًا.

العجوز: أتّفق معك في أن مقاومة مثل هذا الشرّ يجعل الإنسان يفقد الكثير من طاقته البشرية هباءً.

ملحوظة جانبية: في بداية هذا الحوار كان الموقف الذهني الذي أراد وولف تبنّيه هو موقف السخرية من هذا العجوز، إلّا أن الجدّية التي يدير بها العجوز هذا الحوار، جعلت وولف يغيّر موقفه من السخرية واللامبالاة إلى الاهتمام. لذلك بدأ وولف في محاولة حصر تفكيره في عملية استرجاع لذكريات؛ إذ بدأت الصور تتدفّق وتتداعى أمام شاشة مخيّلته، ولكن غالبًا بشكل اعتباطي.

وولف: كل شيء يجيء مختلطًا أمام ذهني، كأن ذكرياتي هي صور فوتوغرافية بالمئات، محشورة في حقيبة صغيرة، أسحب منها واحدة واحدة، لكن دون أيّ نظام موضوعي.

العجوز: لا تهتمّ بالنظام، سأتصرّف أنا وأعيد ترتيب الصور بالشكل المناسب.

جلس وولف على المقعد الحجري إلى جوار العجوز. انحنى بنصفه العلوي إلى الأمام. وضع كوعيه على ركبتيه. وضع رأسه على يديه. بدأ في الكلام بصوت حاول أن يكون محايدًا قدر استطاعته.

(٢)

وولف: كنا نسكن بيتًا كبيرًا أبيض اللون. لا أعرف بالتحديد النقطة الزمنية التي يصح أن تكون نقطة البداية المناسبة. هل كنت مثلًا في سنّ الخامسة؟ تعود الآن إلى ذهني وجوه الخدم. عند استيقاظي في الصباح المبكّر كنت غالبًا أغادر فراشي، وأذهب إلى فراش والديّ لأندسّ بينهما. حدث أحيانًا أن رأيت أبي يقبّل أمّي، إلّا أن هذه القبلات كانت تترك في نفسي أثرًا غير مستحبّ.

العجوز: كيف كانا يتعاملان معك؟

وولف: لا أتذكّر أبدًا أن أحدهما كان عنيفًا معي. كانا من نوع البشر الذين ليس من السهل إغضابهم. كانا لا يفقدان أعصابهما بسهولة. وفي كلّ مرّة حاولت متعمّدًا إغضابهما، بافتعال أسباب واهية للغضب، كان نصيبي هو فشل مسعاي.

كان العجوز ينصت منتبهًا، لكنه لم يعلّق بأي شيء.

وولف: كانا دائمًا ما يظهران مشاعر الاهتمام الزائد عن الحدّ بكل ما يتعلّق بشخصي الضعيف. كانا يشعران بالخوف المبالغ فيه من أن يصيبني مكروه.

فإذا نظرت مثلًا من نافذة وملت قليلًا إلى الأمام اندفعا نحوي خوفًا عليَّ من السقوط. لا أتذكّر أنني حتى سنّ الثالثة عشرة كان

يمكنني أن أعبر الشارع وحدي دون أن يأخذ أبي أو أمي يدي في يده.

كان يكفي أن تهبّ بعض التيّارات الهوائية لبضع دقائق، حتى تضيف أمي سترة صوفية أو سترتين إلى ملابسي، حتى لو كنّا في منتصف فصل الصيف.

أنا مثلًا حتى سن الخامسة عشرة، لم يكن يحقّ لي أن أشرب أي شيء إلَّا الماء الدافئ، بعد أن يكون قد وصل إلى درجة الغليان، لضمان القضاء على كل الميكروبات التي يحتمل أن تكون عالقة به.

لكل هذه الأسباب كانت صحّتي ضعيفة جدًّا، وكان من السهل أن أصاب بكل أمراض الطفولة والمراهقة، بسبب ضعف المقاومة الطبيعية التي تتولّد بشكل تلقائي، في جسم الطفل الذي يتركه أبواه يتعرّض للميكروبات بجرعات صغيرة ولتيّارات الهواء. كدت أنسى أن أذكر لك موضوع الكمامة، التي كانا يضعانها على فمي وأنفي عند خروجنا إلى النزهات الخلوية.

اعتقدت حتى منتصف مراهقتي، أنني حتمًا مصاب بمرض غامض، لا يعرف أسراره إلَّا والداي، لذلك هما يبالغان في إجراءاتهما الوقائية. كان كلٌّ منهما لديه نفس العقلية المتشكّكة، التي تمتلئ حتى حافتها بكل أنواع المخاطر المحتملة وغير المحتملة، التي مهما كانت تافهة فهما يعتقدان أنها يمكنها أن تهدّد حياتي.

ضحك وولف ضحكة هازئة.

(٣)

وولف: أول مرّة أعلنت تمرّدي على أمي، كنت في الخامسة عشرة أستعدّ للخروج معها من المنزل، وكنا في بداية الربيع، وقد وضعَتْ أمي على جسدي معطفًا سميكًا ثقيلًا، جعل جسدي كلّه يتعرّق. فوجئت عند ناصية الشارع بمجموعة من زملائي في المدرسة، وقد شمّروا عن أكمام قمصانهم الصيفية الخفيفة، فشعرت على الفور بالخزي والعار. عدت إلى المنزل رغمًا عن إرادة أمي، وخلعت المعطف الثقيل، ولحقت بعد ذلك بزملائي وأنا بقميص خفيف مثلهم. يا لسعادة الانتصار التي شعرت بها.

العجوز: هذا هو ما أقصده؛ إذ يكفي أن تبدأ بذكرى واحدة حتى تنساب الذكريات الأخرى في سلاسة.

وولف: هناك أشياء أخرى تتضح أمامي الآن، فعندما أدركت أن ضعفي الجسماني في طفولتي ومراهقتي، كان بسبب معتقدات والديّ الخاطئة غير التربوية، بدأت أراجع كل الأفكار التي حاولا غرسها في دماغي، وهكذا بدأ صراعي مع الأفكار المستقرّة في أذهان الكبار من جيل الآباء والأمّهات، ومع الأعراف الاجتماعية السائدة.

كانت صحّتي المتدهورة في سن الرابعة عشرة، بسبب الحرص المبالغ فيه من الوالدين، هي التي جعلتني راغبًا في الصراع معهما، وفي عصيان أوامرهما.

(٤)

وولف: ثم كانت هناك ذكريات النزهات الخلوية، التي أنهت البقيّة الباقية من التردّد، حيال اتخاذ موقف حاسم من أبي وأمي، بسبب المظهر المضحك الغريب لحجم ما كانت أمي تصرّ على أن يحمله الخدم معنا، من سجاجيد ومفارش وأطباق وأكواب وشوك وسكاكين ومعالق، لمجرّد تناول بعض الطعام في الخلاء. بدأت في محاولة ألّا أنضمّ إليهما في مثل هذه المناسبات، أو إذا اضطرّرت إلى الانضمام إليهما، أن أتحرّك في ذلك الخلاء بعيدًا عن نطاق الأسرة، كأنني أريد أن أعلن لمن يمرّ إلى جوارنا، أنني لا أنتمي إلى هذين الشخصين، أو أنني أتبرّأ من تصرّفاتهما.

العجوز: هل معنى كلامك إن هذا النوع من التصرّفات كان يضايقك، فقط في حالة مرور شخص بالقرب منكم؟

وولف: ظلّت حياتي لفترة طويلة، مرتبطة بوجهة نظر الغير فيما أفعله. لقد لعب هؤلاء المراقبون الخارجيون دورًا هامًّا في توجيه دفّة حياتي. وكان لهؤلاء الغرباء غالبًا وجهة نظر مضادة لتلك التي لأبي وأمي. إن وجود هذه النظرة المضادة في نهاية الأمر هو ما أنقذني من قبضة أبي وأمي.

العجوز: إذن لتلخيص الموقف حتى سنّ الخامسة عشرة، فأنت تتهمّ والديك بأنهما كانا السبب فيما عانيت منه من خمول جسدي

وذهني، ومن مخاوف هستيرية غير مبرّرة، كنت مضطرًّا إلى دفع ثمنها وتحمّل تبعاتها. لذلك حاولت فيما بعد أن تعطي لحياتك ألقًا ورونقًا لم يكونا لها في البداية، متأثّرًا في ذلك إلى حدٍ بعيد بنظرة الغير إليك. هذا التناقض بين آراء والديك وآراء الغير ألم يكن مربكًا لك؟

وولف: نعم كان التناقض مربكًا، لكن ليس فقط ذلك التناقض الذي تشير أنت إليه، بل كذلك التناقض بين حبّ أمي وأبي المبالغ فيه لشخصي الضعيف، وبين كراهيّتي أنا لنفسي، مما جعلني أصل إلى نتيجة منطقية، وهي أن كلّ من يحبّني، بما في ذلك أبي وأمي، لا بدّ من أنّه مصاب بالغباء؛ لأني في نظر نفسي لا أستحقّ أيّ حبّ.

انتهى بي الأمر إلى أن خلقت لنفسي عالمًا خاصًّا بي. دون أي قناع أختفي خلفه، أي دون أبٍّ وأمّ. عالم فارغ ومضيء، مثل منظر طبيعي في القطب الشمالي، أثناء فصل الصيف، حين تستمرّ الشمس تضيء الكون أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، لكن ليس تحت هذه الشمس إلّا الفراغ الأبيض الهائل، الذي يحيط بك في كل مكان.

(٥)

كنت في تلك الفترة من حياتي، أتحرّك في الشوارع التي أصبح من حقّي مؤخّرًا أن أذهب إليها في أيّ وقت أريده، من مكان إلى مكان، مثل كلاب الشوارع دون هدف واضح، وأنا أنظر في خطّ مستقيم أمامي، دون أن يرمش لي جفن، أو تغمض لي عين، متنبهًا

جدًّا راغبًا في إدراك كلّ ما يدور حولي، بعد مرور كل تلك السنوات البائسة من العيش في بُلهنية.

أما خلف أبوابي المغلقة، فكنت أقضي الوقت غالبًا في ذرف الدموع والبكاء بنهنهة مسموعة لساعات طويلة، متألّمًا من حالي الذي وضعني فيه أبواي. كانت كل مشاعري ضدّ الحنان والرقّة. كنت أريد أن أصل إلى محاولة أن تكون كل مشاعري تجاه الآخرين هي مشاعر الاحتقار والكراهية.

العجوز: كل الأطفال -عند دخولهم إلى مرحلة المراهقة- يبحثون عن نماذج يمكنها أن تكون قدوةً لهم يحتذون بها. أنت هل كان لديك بطل أمكنك أن تتخذه قدوةً لك؟

وولف: لا لم يكن لي بطل أتخذه قدوة. لم يكن هذا ما يشغلني. الشعور الذي كان يغلب عليَّ حينها هو الخوف من الآخرين. هذا هو السبب الأصلي في العزلة التي عانيت منها حتى منتصف مراهقتي. كانت هناك أيضًا مشاعر الخزي والعار من تصرّفات أبي وأمي، ومشاعر خيبة الأمل فيهما. في الحقيقة كنت أنا أحيانًا بطل نفسي. كنت أحيانًا ألعب دور البطولة في مسرحيّات تدور في خيالي. أكون أنا فيها البطل بصرف النظر عن الأحداث.

العجوز: يكفيني حتى الآن هذا القدر من اعترافاتك. لقد وضعت لك النتيجة النهائية لهذا الاختبار. أشكرك. يمكنك استئناف السير عبر هذا الطريق.

رفع العجوز إصبعه مشيرًا إلى امتداد الطريق الذي يجلس على مقعد إلى جواره.

وولف: إلى اللقاء.

العجوز: لا أعتقد أنه ستكون بيننا لقاءات جديدة.

ثم أزاح العجوز دفاتره، وفرد جسمه المرهق بامتداد المقعد الحجري.

أما وولف فقد بدأ يتحرّك، في الاتجاه الذي أشار إليه العجوز. أثارت تلك المحادثة بينهما الكثير من الشجون القديمة داخله. حرّكت المئات من صور الذكريات عبر المئات من المواقف الحياتية. فجأة وجد وولف نفسه في ظلام تام، كما لو أن الشمس قد انطفأت. فجأة وكأنه بلا إرادة على الإطلاق سمع صوت محرّكات الماكينة تدور من جديد، لم يكن هو من أدارها. بعد فترة من التحليق في الفضاء، سمع صوت ارتطام بالأرض. ما هذا الذي حدث؟ كأنه ذهب إلى السماء بإرادته لكنهم أعادوه من هناك رغم إرادته إلى الأرض.

* * *

الفصل الرابع
العشّاق المغرمين

(١)

كانت المدينة تقترب منهما. المنازل الصغيرة بنوافذها التي تقترب من مستوى سطح الأرض. اندفعت نحوهما مجموعة من الروائح المختلطة والألوان المتنافرة. تابعا مشيهما في الشارع الرئيس. انحرفا تجاه شارع (العشّاق المغرمين). الشارع الذي لو نظرت إليه من الطائرة، لوجدته يتخذ شكل العضو الذكري المنتصب. لدخول هذا الشارع لا بدّ أولًا من المرور عبر بوّابته. البوّابة من الحديد المشغول (فرفورجيه) المتشابك المطلي بماء الذهب. بعد عبور البوّابة أصبحت المنازل ذات طرز معمارية فاخرة.

على الواجهات تجد لوحات من الفسيفساء التي يغلب عليها اللونان الأزرق الفيروزي والوردي. أعلى المباني هناك يمكنك أن تجد قبابًا صغيرة من البللور النقي (الكريستال) ذي اللون الأرجواني. من بين ما يمكنك ملاحظته في (شارع العشّاق المغرمين)، أن أعمدة

الإضاءة تستعمل الغاز الذي عند احتراقه لإضاءة الشارع، تنبعث منه روائحَ عطرية جميلة لإبهاج الزوّار.

وقد تمّ إدخال كل ما يمكن من عناصر تكنولوجية حديثة لتسهيل الخدمة، فهناك مثلًا أمام كل بيت دعارة، شاشة كهربائية كبيرة، تظهر عليها بوضوح، قائمة أسماء الفتيات المتاحات بالدار، مع صور لأشكالهنّ شبه عاريات، ومعلومات عن أصولهنّ العرقية وانتماءاتهنّ الدينية، كما تبدو في الصور بوضوح كلّ ملامح الوجه والجسد، وأمام كل صورة هناك كذلك اسم الفتاة، واللغات الأجنبية التي يمكنها التعامل بها، ودرجة إجادتها لها.

بالإضافة إلى معلومات تفيد، إن كانت الفتاة في الوقت الراهن، خالية أو مشغولة، والمدّة المتوقّعة لاستمرار بقائها مشغولة، ورقم الحجرة التي عادة ما تشغلها، وطريقة الوصول إلى هذه الحجرة، أي في أي طابق ومن أي باب. كما أن هناك فكرة عن الأسعار المتوقّعة لكل فتاة، إلّا إذا أراد الزبون مكافأتها بمبلغ يتعدّى الثمن المشار إليه. وإن كان الزبون يرغب في حجز الفتاة لمدة ساعة كاملة، أو حتى لمدّة ليلة كاملة، فما هي المبالغ المتوقّع دفعها. من المؤكّد أن هناك مسؤول يجلس طوال الوقت أمام أجهزته للعمل.

كما أن هناك إشارة إلى صالات الانتظار المتاحة في كل طابق، إذا رغب الزبون في انتظار فتاة معيّنة، يمكنه أن يبقى فيها مهما طال به الزمن. وقاعات الانتظار هي صالونات، كل حوائطها وكراسيها

مبطّنة بالقطيفة السوداء، مع مصابيح إضاءة صغيرة خافتة، موجّهة بشكل غير مباشر إلى الأركان والزوايا والأسقف، حتى لا تجرح عيون الرجال المنتظرين، وأحيانًا بعض النساء المنتظرات، وحتى لا تفضح وجوه أولئك الذين يتخفّون.

هناك عنصر آخر يساعد على الاسترخاء، وهو أن كل الألحان الموسيقية الخافتة، المذاعة في قاعات الانتظار عبر مجموعة من السمّاعات الداخلية، هي من موسيقى العناصر الطبيعية، مثل أصوات خرير الماء، وأصوات زقزقة العصافير، وأصوات الرياح الخفيفة عندما تحفّ بأوراق الشجر. هذا هو أهم ما يساعد على استرخاء الزبائن، مهما كانت أعصاب الواحد منهم متوتّرة، قبل إقدام كل منهم على القيام بالمهمّة الموكلة إليه.

بالإضافة إلى كل ذلك، فهناك شيئان غريبان جدًّا، أولهما هو وجود رائحة عطرية نباتية مثل رائحة القرنفل أو الياسمين، تملؤ جوّ الأماكن كلّها، كلّ قاعات الانتظار، وكلّ غرف اللقاءات الحميمة، قيل إنها تضاف إليها مادة كيميائية مكتشفة حديثًا، تقوم بتهييج المشاعر الجنسية *aphrodisiac*، حتى إن بعض البيوت تقوم بوضع بخّاخات، من نفس هذه المادة، أمام الشاشات، حتى يستنشقها الرجال الذين يطالعونها. وثانيهما هو وجود ما يشبه الضباب الرمادي الكثيف، الذي لا يمكن إدراك مصدره، مما يجعل كلّ الوجوه والأجسام كما لو كانت تتلفّع في غلالات من أحجبة رقيقة، وهي حيلة متقنة تدلّ على ذكاء من يدير المكان؛ لإضافة المزيد من التخفّي لمن يرغب في ذلك من الرجال.

(٢)

في هذا الشارع تكون الحركة دائبة بين غروب الشمس وشروقها وتزداد بشكل خاص عند منتصف الليل. يتنقّل الرجال بخطوات متردّدة بين واجهات المنازل يتأملّون صور الفتيات. يتساءلون فيما بينهم عمّن تكون له خبرة سابقة مع واحدة منهنّ. يتساءلون هل هذه هي قائمة الأسعار الحقيقية أم أن هناك قائمة أخرى غير معلنة. الفتيات يحاولن أن يحصلن على مكاسب إضافية في حالة وقوع زبون ما في غرام فتاة ما. وفقًا لكل زبون على حدة، يمكن للزبائن التفاوض في الأسعار التي تطلبها الفتيات دون أن يكون للبيت العلم بها.

بعض الفتيات الخاليات من العمل ينتظرن جالسات في صالات الانتظار، أو ينزلن إلى الشارع أمام البيوت، حتى يعاين الزبائن البضاعة بأنفسهم. كنتيجة لهذا هناك بعض الرجال الأشدّاء، الذين يقفون أمام البيوت بعضلاتهم المفتولة؛ لإقناع الزبائن بضرورة الالتزام بالقواعد المفروضة، ولردعهم لو حاول أحدهم التهرّب من الدفع، أو حاول مضايقة الفتيات.

تتكوّن أرصفة الشارع من مادة إسفنجية مرنة، بحيث يمكن الجلوس عليها في راحة تامة دون إرهاق المؤخّرة، حتى إن بعض الرجال الذين لا يملكون سيّارات خاصة، أو لا يستطيعون دفع الأثمان المبالغ فيها لسيّارات الأجرة (التاكسي)، ويقطنون في أحياء بعيدة عن

هذا الشارع، يمكنهم بعد أداء المهمّة التي جاؤوا من أجلها، أن يناموا على الأرصفة حتى شروق شمس الصباح التالي، حين يمكنهم العودة إلى ذويهم، مع بداية عمل خطوط سيّارات النقل العام.

وقد استفادت بعض البائعات المتجوّلات من هذا التجمّع البشري، في بيع شطائر من الخبز، المحتوي على لحوم وأجبان مختلفة، المضاف إليها خلطات خاصة من البهارات القادمة مباشرة من البلاد الآسيوية، وهو ما يجعل جوف الرجل الذي يأكل منها ملتهبًا. هكذا يعمّ الالتهاب جميع أجزاء جسد هذا الرجل البائس، من داخله ومن خارجه، من أعلاه ومن أسفله.

أغلب هؤلاء البائعات كنّ قد جاوزن منتصف العمر، لكن مسحة الجمال الباقية على وجوههنّ، تجعلنا نصدّق ما يقال من أنهنّ كنّ من بين بائعات الهوى داخل هذه البيوت، حتى بلغن من العمر ما لا يسمح لهنّ باستئناف العمل في البيوت. بعضهنّ كنّ لا يزلن مستمرّات في وضع مساحيق التجميل المختلفة على وجوههنّ، وفي ارتداء الملابس الفاضحة شبه العارية، وفي المشي وهزّ الجسد بطريقة فيها غنج واضح، والحديث بصوت يحاولن أن يظهرنه ناضجًا بالأنوثة؛ على أمل أن ينظر إليهنّ أحد الرجال لا بغرض شراء شطيرة، بل بغرض ممارسة مهنتهنّ القديمة.

(٣)

كان وولف وسافير يجلسان أحدهما إلى جوار الآخر، عندما مرّت بجانبهما بائعة متجوّلة، احتكّ فخذها الناعم المائل للامتلاء بإحدى وجنتيه. هي سمراء ببشرة داكنة، طويلة القامة، وذات شعر أسود طويل تركته منفلتًا على كتفيها. تمشي وهي تغني لحنًا على إيقاع ثلاثي، كما لو كان من موسيقى الفالس دوم تاك تاك دوم تاك تاك. شمّ وولف في جسدها رائحة رمال شواطئ جزر البحر الكاريبي. قبل أن تبتعد عنه، مدّ وولف يده إلى يدها وأمسك بها، وأبقاها في مكانها أمامه. لم تعترض على أي شيء فتمادى.

بدأ أولًا بمداعبة الأجزاء الأقرب إليه، مثل الساقين العاريتين، ومنهما انتقل إلى الركبتين والفخذين، ثم من فوق قماش الفستان، استمرّ في مداعبة أجزاء الجسد، من الخصر وصولًا إلى الكتفين والثديين. كانت قويّة الجسد ذات قوام رياضي، رغم أنها تعدّت الثلاثين. بنهاية المداعبة جلست البائعة على الرصيف بين وولف وسافير. بدأ الثلاثة في أكل الشطائر التي كانت البائعة تحملها على صينية نحاسية. بعد القضمة الرابعة بدأ الهواء يتلاعب بشعور رؤوسهم. بعد انتهائه من الشطيرة مال وولف بجسده إلى الخلف حتى استقرّ ظهره على أرضية الرصيف. فعلت البائعة نفس الشيء.

نظر سافير إليهما ثم وقف على قدميه وهو ينظر إلى فتاة أخرى من

بين البائعات المتجوّلات، قريبة الشبه جدًّا من الأخرى كأنهما أختان، عندما لاحظت أنه يتابعها بنظره، اقتربت منه أكثر فأكثر، حتى انتهت إلى أن وقفت أمامه تمامًا، كما سبق وفعلت الأخرى. طلب منها كوبًا من المشروب الذي تبيعه وهو لا يعرف بعد محتواه. المشروب هو من عصير الأناناس المضاف إليه الكحول بنسبة بسيطة. كان من الواضح تمامًا أن سافير يلتهمها بعينيه، في حين أن وولف الأكثر ذكاءً كان قد تصرّف بقدرة أكبر على ضبط النفس.

قال وولف (وقد بدت عليه ملامح التلذّذ الشهواني): ماذا سنفعل الآن؟

سافير: سنكون في وضع أفضل لو تمكننا من دخول أحد هذه البيوت.

وولف (موجّهًا حديثه إلى البائعتين): هل تعتقدان أنه يمكنكما الدخول معنا إلى أحد هذه البيوت؟

قالت إحداهما (مخالفة كلّ توقّعات وولف وسافير): لا يمكننا فعل ذلك معكما؛ فنحن لا نزال نحتفظ بعذريّتنا، وتقاليدنا لا تسمح لنا بفعل ذلك لأول مرة إلّا مع زوجينا المستقبلين.

وولف: لكنكما رغم ذلك تركتمانا نلمس جسديكما في كل المواضع!

قالت: نعم يمكنكما لمسنا وشمّنا وتقبيلنا، ولحس الأجزاء العارية من جسدينا، لكنكما رغم ذلك لا يمكنكما إتيان الفعل الجنسي الكامل معنا.

وولف: إذن أنتما لا تنفعاننا؛ إذ ما الفائدة من إشعال الرغبة الجنسية فينا بهذا الشكل، دون أن نستطيع الوصول معكما إلى مبتغانا. هذا هو بالنسبة لي الإحباط التام في شكله الأكثر تجسيمًا، أن تترك رغبتك تنمو داخلك إلى الحدّ الأقصى، ثم تترك رغبتك هذه دون إشباع.

قالت: إذن أنت لم تفهم أنه لهذا السبب بالتحديد، هم يتركوننا نعمل هنا في سلام في الشارع في بيع المأكولات والمشروبات؛ لأننا نوافق على ترك الزبائن يلمسوننا، على أساس أن إشعال الرغبة يتيح لهم الحصول على المزيد من الزبائن، فتقوم فتياتهم بإتمام لعب الدور الذي لا نستطيع نحن أن نتمّه.

جلس وولف على الرصيف، وهو يحرّك يده اليمنى في شعر رأسه كأنه يفكّر، ويتساءل بينه وبين نفسه، هل يبقيان جالسين هنا، على الرصيف مع هاتين الفتاتين، أم يتركانهما ويدخلان أحد هذه البيوت؟ كانت بائعة الشطائر -بمكر ودهاء- قد عادت إلى الوقوف بين يديه، فعاد إلى احتضان ساقيها، وهو لا يعرف ماذا سيفعل بها بعد، أو ما هي الخطوة التالية. تمادى من جديد وعاد إلى وضع شفتيه على بشرة هاتين الساقين.

ثم وقف فجأة قائلًا لسافير (دعنا نذهب ونتركهما تعملان)، وأخرج من جيبه عملة ورقية ذات قيمة كبيرة نسبيًّا، أكثر مما توقّعت الفتاتان، مشيرًا إليهما بيده بما يعني (مناصفة بينكما)، وأعطاهما إيّاها، وأخذ سافير من يده وابتعدا، في حين بدأت الفتاتان في التلويح

لهما باليد بعلامة الوداع. لم يكونا يعرفان أي البيوت يختاران. اقترح سافير أن يتركا أربعة بيوت ثمّ يدخلان الخامس. وافق وولف.

(٤)

أمام البيت الخامس اكتشف الرجلان، أن الشاشة التلفزيونية تعلن أن كلّ الفتيات مشغولات، ورغم ذلك دفع وولف الباب بيده ودخلا. بمجرّد الدخول ورغم ضعف الإضاءة، استطاع الرجلان رؤية ثلاث فتيات نائمات على فراش جلدي، يقع في منتصف الحجرة التي يقودهما إليها ممرّ الدخول من الباب الأمامي. اقترح وولف أن يخلعا ملابسهما وأن يناما مع الفتيات عاريين، بحيث تكون الفتاة الوسطى بينهما، وتكون الفتاتان الجانبيّتان، إلى جوار كل منهما من الناحية الأخرى. قال سافير إنها فكرة جيّدة وبدآ على الفور في التنفيذ.

شعرت بهما الفتيات أثناء اندساسهما، لكنهنّ لم يبدين أي اعتراض، بل إنهنّ لم ينطقن بكلمة واحدة، بل لم تفتح أي منهنّ عينًا واحدة، وإنما تركن الرجلين يختاران الأوضاع التي تناسب كلًّا منهما. من الغريب في سلوك الفتاتين الجانبيّتين، أن نصفيهما العلويّين استمرّا في النوم، أو على الأقل فإن هذا هو ما نجحا في الإيحاء به إلى الرجلين، في حين استيقظ تمامًا نصفاهما السفليّان. إنها حقًّا ظاهرة عجيبة. كأن هؤلاء الفتيات مبرمجات، بحيث يمكنهنّ الحصول في أدمغتهنّ على قدر من النوم، رغم استئناف أجزائهنّ السفلية العمل.

عندما حصل وولف من الفتاة على مبتغاه، غادر الفراش ووقف إلى جواره، في حين عادت هي إلى النوم بكامل جسدها، أي لحق جزؤها السفليّ بجزئها العلويّ. هو لم يكن يريدها أن تنام، بل عمد إلى إيقاظها بأن حملها بين ذراعيه، وسألها: أين الحمّام ليغسل جسده. تحدّثت إليه وقد تعلّقت به وشبكت ذراعيها خلف رقبته. كان وزن الفتاة خفيفًا جدًّا، فاستمرّ في حملها إلى أن وصلا إلى صالة الاستحمام، واشتركا في الحصول على حمام ماء ساخن، داخل حوض الاستحمام الواسع، المعدّ لاستقبال أكثر من شخص واحد في الوقت نفسه. بفعل الماء الساخن والاسترخاء عادت الفتاة إلى النوم، فأراح رأسها على حافة الحوض، ثم غادر صالة الاستحمام عائدًا إلى الحجرة الأمامية، حيث ارتدى ملابسه. كان سافير هو الآخر قد ارتدى ملابسه واستعدّ لمغادرة المكان.

(٥)

الآن هما قد عادا إلى الشارع. سارا جنبًا إلى جنب وقد وضعا أيديهما في جيوب سروالهما. هما الآن يتنفّسان بعمق هواء الليل العليل. وجدا أن الشارع لا يزال يعجّ بالرجال، الذين كان بعضهم يتسكّع بشكل واضح وهم من لم يحدّدوا بعد الوِجهة التي سيتجهون إليها. أمّا الرجال الذين يعرفون الهدف الذي يسعون إليه، فهم يتحرّكون في سرعة وجدّية تامة.

هناك كذلك أولئك الرجال الجالسون أو النائمون على الأرصفة، وقد خلعوا أحذيتهم ووضعوها تحت رؤوسهم، وتبدو عليهم علامات الإرهاق، وهم غالبًا من بين الرجال الذين خرجوا للتوّ من أحد البيوت، وينتظرون على الرصيف للاستراحة لبعض الوقت من المجهود المبذول، أو هم من بين مَن لا يملكون سيّارات خاصة، وينتظرون ساعات حتى شروق الشمس؛ لاستعمال وسائل النقل العامة في العودة إلى ذويهم. بتبادل أطراف الحديث مع بعضهم، عرف وولف أن هؤلاء الرجال العزّاب، يحصلون على اشتراكات مخفّضة في بعض البيوت، وهم بالتالي يحضرون إلى هنا كل ليلة.

أحد هؤلاء الرجال قال لوولف إن هذا الحلّ، رغم تكلفته العالية، يعتبر ماديًّا الحلّ الأرخص؛ إذ يعفي الرجل من تحمّل مصروفات زوجة وأطفال، ويعتبر معنويًّا الحلّ الأمثل؛ إذ يترك للرجل حرّية كبيرة للتصرّف في حياته بالشكل الذي يريده، لا بالشكل الذي يُفْرَض عليه في حالة كونه زوجًا وأبًا. لاحظ وولف أن هذا النوع من الرجال العزّاب، يتميّز بدرجة لياقة بدنية عالية، لكنهم كذلك يميلون إلى النحافة، ولديهم نظرات نارية في أعينهم. لاحظ وولف كذلك أن هذا الرجل يبدو أن ضميره مستريح لما يفعله؛ إذ لا يبدو عليه أنه في صراع نفسي، كأن عدم الانجاب ليست مسألة ذات شأن لديه.

* * *

الفصل الخامس

الألعـاب

(١)

عند مدخل أحد البيوت خرج رجلان بشكل فيه اندفاع فاصطدما بوولف وسافير. لم يعتذرا، بل وجّه الأكبر حجمًا منهما سؤالًا إلى وولف (هل أنتما من سكّان هذه المدينة؟). لاحظ وولف أنهما يرتديان الزيّ الرسمي لرجال البحرية، وأنهما يتميّزان بقوام رياضي وبضخامة عضلات الذراعين. كما أن لون بشرتيهما هو اللون الأسمر البرونزي، غالبًا بسبب عملهما على سفن، تجوب مناطق البحار الجنوبية، الدافئة المشمسة طوال العام. أجاب وولف بنعم.

البحّار: إذن يمكنكما أن تدلّانا على أندية اللعب في هذه المدينة؟

وولف: أي نوع من الألعاب تقصد؟

البحّار: ألعاب (إسالة الدماء) و(إهانة الجسد).

سافير: يمكنكما أن تسيرا معنا؛ فالمكان ليس بعيدًا عن هنا. قولا لنا متى وصلت سفينتكما؟

البحّار (نفسه وهو الأكبر حجمًا): منذ سنتين.

وولف: هل قلت منذ سنتين؟ أم أنا أتوهّم؟ هل أنتما هنا في حيّ العشّاق المغرمين منذ سنتين؟

البحّار: لقد أحببنا هذا المكان، وقرّرنا عدم مغادرته حتى يوم أن تنتهي مدخراتنا في البنوك.

وولف: ما اسماكما؟

البحّار: أنا (ساندر) وزميلي (بيرسينج). هل ستأتيان معنا إلى لعبة (إسالة الدماء)؟

سافير: نحن لا نعرف لعبة بهذا الاسم.

ساندر: هي لعبة سهلة وليس فيها أي مجال للخسارة. إنها مكسب على طول الخطّ. وليس هناك إلَّا درجات مختلفة من المكسب.

وولف: يبدو أنك ستقنعني بالذهاب معكما، رغم أن نيّتنا كانت أن نقودكما إلى هناك ثم نعود إلى بيتنا. أنا أؤمن بأن على الإنسان تجربة كل شيء ولو مرّة واحدة.

ساندر: لكن قبل الذهاب أريد احتساء مشروب كحولي.

ثم أشار إلى بائعة مشروبات، فحضرت إليه وهي تكاد تجري. من الواضح أنه زبون معروف للبائعات بقدرته الشرائية الكبيرة. هي تبيع نفس المشروب السابق الإشارة إليه أعلاه (عصير الأناناس الكحولي).

شربوا جميعًا ودعوها إلى أن تشرب معهم على حسابهم، فقبلت على الفور. بعد إعادة الزجاجات الفارغة إليها قبّلوها جميعًا على خدّيها. ثم لأنها بدت لهم سعيدة جدًّا، عادوا جميعًا إلى تقبيلها على شفتيها. في الحقيقة كانت الفتاة جميلة. قرّروا جميعًا الحصول على زجاجة ثانية لكلٍ منهم. هكذا وصلوا جميعًا إلى مرحلة الاسترخاء الكحولي التام، من شعر رؤوسهم إلى أصابع أقدامهم. كانت السعادة التامة بادية على كل الوجوه. استأنفوا السير.

سافير: هل أبحرتما كثيرًا في البحار والمحيطات المختلفة، قبل أن تقرّرا منذ عامين الاستقرار هنا؟

ساندر: في الحقيقة أننا خلال عشرة أعوام، لم نكن نتوقّف أبدًا عن الحركة بين الموانئ، في قارات العالم المختلفة.

سافير: وما هي أكثر البلاد إثارةً للفضول؟

ساندر: جزر التجاويف الغامضة.

سافير: هل هذا مخيف؟

ساندر: نعم، لكننا لم نعد الآن نتذكّر الكثير من التفاصيل، فقد أنستنا ذكرياتنا الحالية في شارع العشّاق المغرمين، كلّ ما كان لدينا من ذكريات سابقة. الانطباع الوحيد الباقي عن ثلاثة أيّام بلياليها، قضيناها في تلك الجزر، هو أننا لم نكن نشعر بالخوف طوال بقائنا هناك، لكننا شعرنا بالخوف بعد مغادرتنا المكان، وبعد إدراكنا حجم الأخطار التي كان من الممكن أن نتعرّض لها.

(٢)

بعد بضع خطوات أخرى وصلوا إلى شارع الألعاب المتفرّع من شارع العشّاق المغرمين.

ساندر: رغم أننا هنا منذ عامين، إلّا أننا نضلّ الطريق، في كل مرة أردنا الذهاب إلى شارع الألعاب، كأن هناك حيلة سحرية ما.

دفع ساندر باب أحد البيوت ودخل، فدخل الثلاثة الآخرون خلفه. ليس من الممكن أن تشعر بالخوف ومعك ساندر، فهو عملاق يتكوّن جسمه من كتل من العضلات. وجدوا أنفسهم في قاعة واسعة طولها عشرون مترًا وعرضها عشرة أمتار، أرضيّتها من البلاط الذي يسهل غسله، تنقسم إلى جزأين، الجزء إلى يمين الداخل مخصّص للفاعلين والفاعلات من لاعبين ولاعبات، الجالسين والجالسات على مقاعد مريحة من الجلد.

الجزء إلى يسار الداخل مخصّص للضحايا، من المفعول بهم من الرجال والنساء، الواقفين والواقفات وهم لا يضعون على أجسادهم، إلّا ما يغطّي أعضاءهم التناسلية. بعضهم حتى يفضّل ترك هذه الأعضاء هي الأخرى عارية. يمكن على الفور ملاحظة أن أيدي الضحايا وأقدامهم مكبّلة بالأغلال. عند الدخول يترك لك الخيار بين الانضمام إلى أهل اليمين، أو الانضمام إلى أهل اليسار.

انضم الزوّار الأربعة الجدد إلى أهل اليمين. ذهبوا في الحال إلى مكتب توزيع أدوات اللعب على أهل اليمين. هذه الأدوات هي مواسير صغيرة بطول عشرين سنتيمترًا، ومجموعة كبيرة من الأسهم الصغيرة، التي لا يتعدّى طول الواحد منها العشرة سنتيمترات، ويمكن وضعها بطريقة خاصة داخل الماسورة، والنفخ من الناحية الأخرى، فينطلق السهم بقوة لمسافة عشرة أمتار، ليصيب أحد الضحايا في أي مكان من جسده أو من جسدها.

كما هو واضح الآن، فهذه اللعبة من نوع الألعاب السادو مازوخية *Sado maso*، التي انتشرت مؤخّرًا في كل البلاد الأوروبية، وتجد المزيد من الرواج طول الوقت. أهل اليمين يتمتّعون بتعذيب الآخرين، وأهل اليسار يتمتّعون بتعذيب الآخرين لهم.

(٣)

جلس ساندر على كرسي مريح من الجلد، وأمسك بماسورته في يده، ووضع فيها سهمًا، ثم نفخ في الماسورة، فانطلق منها السهم باندفاع شديد، متّجهًا إلى فتاة لا تكاد تبلغ السادسة عشرة من العمر، ليصيب ثديها الأيسر، فتأوّهت من الألم، وتكونّت على الفور بقعة من الدمّ الأحمر، انسالت ببطء على جلد صدرها وصولًا إلى بطنها.

بيرسينج (الذي يتحدّث لأول مرة منذ قابلناه موجّهًا كلامه إلى ساندر): أنت لئيم وشرّير، فأنت لا تصيب دائمًا إلّا الأثداء الصغيرة

للفتيات الصغيرات. ما الذي بينك وبين الفتيات؟

وولف: السؤال هو ما الذي جاء بهذه الفتاة إلى هنا؟

سافير (موجّهًا سؤاله إلى بيرسينج): وأنت ماذا تتعمّد أن تصيب؟

بيرسينج: أنا أحبّ النساء ولا أوجّه أسهمي إلّا للرجال.

استمرّ ساندر في توجيه أسهمه إلى نفس الفتاة، بل وفي نفس الموضع، حتى وصل الأمر بالفتاة إلى الصراخ بصوت مرتفع.

عند هذا الحدّ ألقى وولف بالماسورة والأسهم من يده، قائلًا إنه لن يستمرّ في لعب هذه اللعبة. طلب من سافير أن يخرج معه.

سافير: أريد أولًا أن أصيب بسهمي تلك العجوز الشمطاء التي تتعرّى. ماذا تعتقد هي؟ هل سينظر أحد إلى جسدها البشع؟

وولف: أنا لا أعتقد أن هذا ممتع بأي شكل من الأشكال.

أما بيرسينج فقد وجّه أسهمًا متتالية إلى صبيّ صغير، هو الآخر لا يكاد يتعدّى سنه السادسة عشرة. كان الصبي يرفع ذراعيه إلى مستوى رأسه، وهو ما ترك إبطيه مكشوفين. تعمّد بيرسينج توجيه إصابات متتالية في نفس الموضع. أحد هذه الأسهم لم يكتفِ بإصابة الجلد، بل دخل بأكمله في جسم الصبي واختفى بداخله. تحرّك أحد حرّاس المكان إلى بيرسينج قائلًا له:

(أنت تعرف أن من أصول اللعبة ألّا تجعل السهم يدخل كلّه في جسد الضحيّة؛ لأنك في هذه الحالة ستدفع تكاليف التدخّل الجراحي

لإخراج السهم من الجسم، بما في ذلك أجرة الطبيب المقيم، وكذلك أجرة المخدّر الذي سيستخدم).

(٤)

تجمّد سافير في مكانه؛ إذ ظهر له بين الضحايا نفس الشبح الذي سبق أن ظهر له، قبل أيّام في حديقة المنزل، عندما كان واقفًا وحده مع فولا. هذه المرّة كانت ملامح الشبح أكثر وضوحًا من المرّة السابقة. هذا بفضل الإضاءة القويّة في المكان. هذه المرة يجب ألّا يفلت منه. يجب أن يتخلّص منه نهائيًّا. كانت الضحايا تقف ثابتة في أماكنها على قرص دائري دوّار، بحيث تعود نفس الضحّية المفعول بها، أمام نفس الفاعل، كلّما أكمل القرص الدوّار دورته.

انشغل سافير بمحاولة الاقتراب قدر الإمكان من القرص الدوّار. كان هناك تزاحم بين الفاعلين على الاقتراب من الصفّ الأول. عندما نظر سافير من جديد إلى وجه الشبح ارتعدت أطرافه. لم يقوَ على توجيه السهم إليه. إن وجه الشبح يشبه وجهه تمامًا.

سافير (موجّها حديثه إلى وولف): هل رأيت هذا؟

وولف: ماذا تقصد بهذا؟

سافير: الرجل الذي يشبهني تمامًا.

وولف: عن أي رجل تتحدّث؟ أنا لم أرَ أيّ رجل يشبهك.

سافير: دعنا نخرج من هنا.

الفصل السادس

الكهـوف

(١)

ابتعدا عن شارع الألعاب بخطوات سريعة. عبرا البوّابة والظلام الدامس لا يزال يحيط بهما. كانت أمامهما ساعة مشيًا على الأقدام للعودة إلى المنزل. اكتشفا كم أصابهما الإرهاق، بدليل أنهما لم يكونا قادرين على رفع أقدامهما عن الأرض، بل إنهما كانا يجرّانها. لمعت الفكرة في رأس وولف، فقال: (ماذا لو انتظرنا شروق الشمس ونحن في منطقة الكهوف؟)، فوافق سافير.

دخلا في أول منزل على يمين الطريق. هو منزل من طابق علوي واحد فوق الأرض. نزلا السلالم إلى الطوابق تحت الأرضيّة. كانت درجات السلالم تزداد خضرة كلما نزلا طابقًا جديدًا تحت الأرض. هذه الخضرة هي بسبب النموّ الكثيف للطحالب الخضراء. كل هذا بسبب ارتفاع درجة رطوبة الجوّ وكثافة بخار الماء. بعد عدد غير

محدّد من الطوابق تحت الأرضية وصلا إلى الممرّ العمومي. هو الممرّ الواصل بين كل الكهوف تحت الأرضية، الموجودة أسفل كل المنازل.

على جانبي الممرّ كانت هناك مصابيح كهربائية تسمح بإضاءة جيّدة للممرّ لمن يريد عبوره مشيًا. بامتداد هذا الممر هناك مناطق تفصل بينها أبواب يمكن أن تغلق، لكنها تظلّ مفتوحة تقريبًا طول الوقت. لو أغلقت الأبواب للزم وضع حراس عليها يملكون المفاتيح. وهذه تكلفة إضافية لا تتحمّلها ميزانية الشؤون البلدية بمجلس المدينة.

كانت الحدود العلويّة لهذه الأبواب الخشبية، تتخذ شكل الأقواس نصف الدائريّة، لتتناسب مع السقف المقبّي للممرّ. كل الأجزاء الخشبية كانت مكفّتة بقطع من الزجاج البلّوري اللازوردي اللامع. لاحظا أنه كلما اتسع الممرّ بَرُدَ هواؤه، وكلما ضاق الممرّ ارتفعت درجة حرارة الجوّ داخله.

كانا ينصتان إلى ما يشبه دقّات القلب البشري. *lub dub lub* *dub lub dub* كما يقول الأطبّاء. هذا يجعل الزائر يعتقد كما لو أن هذا الممرّ هو شريان في جسد الأرض. تصبّ فيه موجة الدم المندفع إلى أطراف الجسد. يجوز أن هذا هو السبب في اتساع الممر ثم ضيق الممر. هو يتسّع عند مرور النبضة (أو دفقة الدم). ويضيق عند انسحابها. أين يقع القلب؟

وكما يحدث في شبكة شرايين الجسد البشري، عندما تتفرّع من

الأورطي، وهو الشريان الأكبر حجمًا في الجسد، الشرايين الأخرى الأقل حجمًا، فعند نزول الأورطى من القلب في مستوى الصدر، إلى البطن في مستوى منخفض عن الصدر، يرسل الشريان الأورطى تفريعات أقل حجمًا إلى المعدة والأمعاء والكُلى، يحدث نفس هذا الشيء أمامهما الآن؛ إذ تتفرّع ممرّات أقلّ اتساعًا، إلى اليمين وإلى اليسار، من الممرّ الأوسط.

مع تغيّر حجم الممرّات، تتغيّر ألوان قطع الزجاج البلّوري المكفّت للأبواب، من اللون اللازوردي في أخشاب أبواب الممرّ الرئيس، إلى الألوان الأزرق والبنفسجي والوردي والأخضر والبرتقالي، في أخشاب أبواب الممرّات الجانبية. ولأنهما لم يكونا يفهمان دلالات هذه الألوان، لذلك قرّرا البقاء في الممرّ الرئيس. في لحظة ما بدت لهم هذه القطع من الزجاج البلّوري، كما لو كانت عيون قطط حيّة تتجسّس عليهما وتراقب خطواتهما. من المعروف أن القطط هي من بين الحيوانات تحت الأرضية.

(٢)

بعد أن كانا قد قطعا حوالي ٣٠٠ متر، ولم يكونا قد تبادلا كلمة حوار واحدة، زادت قوّة النبضات بشكل واضح، ففهما على الفور أنهما يقتربان من منطقة القلب. وجدا مقعدًا من الحجر الأبيض على جانب الممرّ فجلسا عليه يريحان أقدامهما المتعبة. تساءل سافير

بذكاء إن كان هذا المقعد الحجري هو قطعة من الكوليسترول، الذي قد يتحوّل إلى جلطة يمكنها أن تسدّ الشريان. لم يردّ عليه وولف؛ لأنه كان مشغولاً بملاحظة شيء آخر.

وولف (وهو يفكّر فيما حدث للماكينة أثناء رحلته إلى الرجل العجوز): هل تلاحظ تلك المادة السوداء اللزجة التي تسيل على الجدران الداخلية للممرّ؟

سافير: لاحظتها منذ البداية، واعتقدت أن الجدران تتعرّق، كما يحدث لكل الأجسام الحيّة. هل تلاحظ أنها الآن بدأت في التحوّل من اللون الأسود إلى اللون الأحمر الداكن؟ كما لو أن الجدران تنزف قطرات سميكة من دمّ كثيف.

وولف: لم ألاحظ هذا إلّا الآن وأنت تقوله.

سافير: أليس كل هذا العالم الخيالي للكهوف هو عالم مسحور؟ أليست كل هذه الكهوف والممرّات تحت الأرضية، هي من بقايا تراث خرافات قدامى الجولوا *Gaulois* أسلاف الفرنسيين الحاليين؟

وولف: لا أفهم ماذا تقصد؟

سافير: في فرنسا القديمة قبل ألفي عام، كان الناس يحفرون خنادق تحت الأرض؛ ليلجؤوا إلى العيش فيها، في حالة سقوط قبّة السماء عليهم.

وولف: هذا غير حقيقي. أنا هنا الآن لأحاول أن أعرف إلى أين تنتهي هذه الممرّات. ليست هذه هي المرّة الأولى لي فيها، فقد سبق

لي أن جئت إليها، لكني لأول مرّة أعتقد أنه من الضروري أن أعرف، إلى أين تقودنا هذه الممرّات، التي تبدو كما لو كانت بلا نهاية.

سافير (في احتداد): لماذا أنت دائمًا تنتقد وتسفّه أفكاري. أنت تعلم أنني لست من هذه المنطقة، بل إني لا أعيش فيها إلّا منذ وقت قليل، ولا أعرف أي شيء عن أسرار الأرض هنا، ومع ذلك فأنت لا تشرح لي أي شيء، بل تطلب مني أن أتبعك وأنا مغمض العينين. صحيح أنك رئيسي في العمل، لكن من المفروض أننا خارج إطار العمل أصبحنا صديقين. وللصديق حقوق على صديقه، أم أنني واهم؟ مثلًا فيما يتعلّق بهذا السائل الداكن الحمرة الذي يسيل على الجدران، ليس السؤال المهم هو (ماهو هذا السائل؟) بقدر أن الأهم منه هو السؤال (من أين يأتي وإلى أين يذهب؟).

وولف: أنا آسف على الانطباع الذي لديك عنّي، لكننا هنا نحن نكتفي برؤية الأشياء كما هي، ولا نتساءل من أين تأتي.

سافير (ساخرًا): أنت تناقض نفسك دون أن تدري، فأنت منذ لحظة قلت إنك تريد أن تعرف إلى أين تنتهي هذه الممرّات.

وولف: أنا أسمّي هذا حب استطلاع لا يمكن مقاومته. هذه ليست رغبة أو إرادة، بل إنه شيء لا يمكن مقاومته، هو يحدث رغمًا عن رغبتك أو عن إرادتك. (ثم يتحوّل من الدفاع عن النفس إلى الهجوم). وأنت ألا تناقض نفسك عندما تقول لفولا إنك تحبّها، ثم تمارس الجنس مع فتاة لا تعرفها ولم ترها من قبل في شارع المغرمين؟

سافير: وأنت ألا تحبّ زوجتك؟

وولف: بعد بضع سنوات من الزواج يصبح الوضع مختلفًا.

(٣)

هنا بعد استئنافهما المشي بضع دقائق، قابلا فجأة أمامهما رجلًا أفريقيًّا، يرقص رقصة أفريقية. كان قد تجمّع حوله عدد آخر من الرجال الغرباء من زوّار المكان، الذين توقّفوا هم أيضًا عن المشي بهدف متابعة رقصته. كانت نظرات هؤلاء الرجال تبدو ساخرة. كانوا كلهم من بيض البشرة، مما جعل الراقص الأسود يعتقد أن في نظراتهم قدر من العنصرية ضد السود، مع قدر من التعالي الأبيض المعتاد، مما ضايق الراقص الأسود. لاحظ وولف كلّ هذا.

قال وولف في نفسه إن الاعتقاد السائد لدى أغلب البيض، أنه يكفيهم بياض بشرتهم، حتى يكون هذا وحده السبب في إحساسهم بالتفوّق على السود، رغم أن الإنسان لا فضل له في لون بشرته، بل إنها مسألة قدرية بحتة. وأقرّ كذلك بينه وبين نفسه أن السود لديهم حساسية شديدة، من أبسط الملاحظات المتعلّقة بصفاتهم الجسمانية الأخرى، مثل طبيعة الشعر أو ملامح الوجه أو سُمْك الشفاه.

في حين أن الحقيقة هي أنه من المفروض أن يحدث العكس، أي أن يشعر البيض بالدونية تجاه السود؛ وذلك لأن اللون الأبيض للبشرة،

هو بسبب نقص مواد التلوين في خلايا البشرة. قال وولف في نفسه إنه لا يفهم أبدًا كيف أن البيض يحاولون -في جميع بلاد العالم- أن يفرضوا قوانينهم وأعرافهم على كل من عداهم من البشر؛ بسبب أن لديهم هذا النقص في مواد تلوين بشرة جلودهم. ربّما أن هذا الشاب الأسود يرقص هنا تحت الأرض، ليتجنّب أعين البيض المتلصّصة الساخرة.

لاحظ وولف أنه من الممكن الحياة هنا لبضعة أيام، دون احتياج إلى الخروج من الكهوف. هنا توجد أنابيب تمدّ أهل الكهوف بالهواء النقي. هنا توجد كذلك فتحات في بعض الأسقف يمكنها أن تعكس ضوء الشمس، في حالة سطوعها نهارًا، عن طريق البلّور الزجاجي ذي الألوان البرتقالية أو الصفراء. لهذا إذن يغلب اللون البرتقالي على منظر الشاب الراقص. كما أنه أحسن اختيار موقع الرقص؛ لأن هذا المكان هو أوسع مكان في الممرّات.

أعلن الراقص على جمهوره الصغير، إنه سيرقص رقصة (الثعبان)، ثم وضع أسطوانة موسيقية في آلة تشغيل الأسطوانات. فانطلق صوت آلة نفخ نحاسية، بصوت قريب الشبه من صوت نداء التحذير (السارينة)، الذي يصدر من السفن أثناء إبحارها، لتنبيه السفن الأخرى إلى اقترابها. صوت من طبقة موسيقية عميقة، تؤدّيه آلة الساكسوفون الباريتون، ثم جاء الإيقاع. انتبه وولف وسافير لمتابعة كل حركات الراقص، الذي بدأ جسمه كله يرتعش، من أطراف أصابع ذراعيه، إلى رأسه وقدميه. بدا الأمر كما لو أن للراقص خمس عشرة

طريقة مختلفة لإدارة مفاصل الركبة، هذا رقم كبير حتى بالنسبة لراقص أفريقي محترف. بفضل الانبهار بهذا الراقص نسي وولف همومه.

(٤)

وولف: بودّي لو بقيت هنا لفترة أطول، لكن العمل يناديا.

سافير: العمل يناديك أنت، أما أنا فسأبقى هنا.

وولف: أنت لا تزال غاضبًا مني؟

سافير: انظر إلى أسلوبك معي لتعرف السبب، فأنت دائمًا تأخذ القرارات دون أن تعرف رأيي.

وولف: هل هذا معناه أنك لن تعود أبدًا إلى منزلنا، حتى ولو كان السبب هو الزواج من فولا؟

سافير: يجوز أن تكون هي السبب الوحيد الذي يدعوني إلى العودة معك إلى (منزلك)، ولا تقل بعد الآن (منزلنا).

ثم بعد فترة صمت من الطرفين.

سافير: في الحقيقة كذلك إن ضميري المهني يدعوني هو الآخر للعودة معك، لاستئناف العمل في مشروع الماكينة الذي بدأناه معًا، فلا يزال لدينا السؤال هل يمكننا أن نطلقها من جديد في الفضاء؟ أم أن التلف الذي حدث لها في رحلتها الأولى هو من نوع الإصابات غير القابلة للإصلاح؟

يُنْهي الراقص رقصة الثعبان، وقد انشغلا عنه بالحديث الدائر بينهما. رغم ذلك هو ينظر إليهما دونًا عن بقية أفراد الجمهور، وعلى وجهه ابتسامة ودّ. لاحظا ابتلال جسده وملابسه بالعرق الغزير. جفّف الرجل عرقه قدر استطاعته، ثم أعلن على الجمهور اسم الرقصة التالية رقصة (النعامة). ظهر الفرق بين الرقصتين على الفور في اختلاف الإيقاع، فالنعامة تتحرّك بسرعة كبيرة بفضل قدميها وساقيها، أما حركة الثعبان فهي بدوران عضلات الجسد على الأرض والتفافه حول نفسه. بعد الانتهاء من هذه الرقصة، اقترب الراقص منهما ووجّه إليهما الكلام.

الراقص: إن بقاءكما تشاهدانني لمدّة تقترب من الساعتين، قد يكون معناه إعجابكما برقصي؟

سافير: قل الانبهار ولا تقل الإعجاب.

الراقص: أشكركما، لقد لاحظت نظرات التقدير في أعينكما، دونًا عن بقيّة أفراد الجمهور، لذلك وددت أن أشكركما، لكني مضطر الآن إلى مغادرة المكان، فقد آن أوان راحتي.

انسحب إلى أحد الأركان، حيث فوجئ الجميع بوجود أسد عجوز نائم، لم يكن أحد قد لاحظ وجوده، أيقظه الأفريقي ثم أخذه من مقوده، وسارا معًا كصديقين في أحد الممرّات الفرعية.

سافير: أشعر بالإحباط، وكنت أودّ لو استمرّ في الرقص لمدة ساعتين أخريين.

وولف: الحياة كلها ما هي إلّا سلسلة متصّلة من الإحباطات ومن خيبات الأمل، مع لحظات قصيرة من السعادة، مثل تلك اللحظات الفائتة في مراقبة الراقص، لكن بسبب حالة الاكتئاب شبه المزمن التي تمرّ بها، كنت ستشعر بالإحباط نفسه، في نهاية مدّة الرقص، حتى لو كانت قد طالت إلى عشر ساعات. أرجو أن تكون لديك الشجاعة لتقرّ بهذا، حتى ولو بينك وبين نفسك.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع

الكنائس

(١)

وجد وولف نفسه في نفس الممرّ، الذي سبق أثناء رحلته الأولى، أن قابل فيه الرجل العجوز. استأنف السير وهو لا يعرف إلى أين سيقوده هذا الممرّ. لاحظ أنه عند خط الأفق ظهرت معالم مبنى من المباني الدينية، الذي يبدو من بعيد، كما لو كان أحد الأديرة أو كانت إحدى الكنائس. عند وصوله إلى المبنى، وجد أبوابه مفتوحة على مصراعيها في دعوة واضحة للدخول. تتبّع الأسهم التي كانت موضوعة على الجدران لإرشاد الزائرين المنفردين، القادمين لأول مرّة إلى هذا المكان. قادته الأسهم إلى باب مغلق طرقه ثلاث مرّات، بأطراف أصابع يده اليمنى. أنصت إلى كلمة (ادخل).

وجد أمامه رجلًا تخطّى سنّ الشباب، لكنه لم يصل بعد إلى سنّ الشيوخ، يرتدي لباس الكهنوت، من عباءات وأغطية رأس، وسندعوه

هنا (القسّ) دون حاجة بنا إلى معرفة رتبته الكهنوتية. كان الرجل يجلس خلف مكتب، وطلب من وولف أن يجلس -هو الآخر- على أحد المقاعد الموجودة أمام نفس المكتب. ودار بينهما الحوار الطويل التالي.

القسّ: وفقًا للملفّات التي في يدي، أنت لم تعد مؤمنًا بأيّ معتقدات دينية منذ وقت طويل. هل تستطيع أن تذكر لي منذ متى بالضبط بدأت تفقد إيمانك؟

وولف: منذ مرحلة الطفولة المبكّرة، عندما كانوا يحكون لنا في حصص الدين في المدارس، وفي اجتماعات الأحد في الكنائس، عن كل هؤلاء الأشخاص المقدّسين، الذين يقومون طول الوقت بعمل معجزات، مثل الطيران في الهواء والصعود إلى السماء، وشفاء المرضى وإقامة الأموات. لم أصدّق أبدًا كل هذه الخرافات. ولأننا غالبًا في بداية الطفولة نصدّق هذه المعجزات، على أمل أن نرى ولو واحدة فقط منها تتحقّق أمامنا، لكن عندما تمرّ السنوات، ولا يحدث أي شيء من كل ما حكوا لنا عليه نفقد الإيمان. المسألة بهذه البساطة، فلو لم تكونوا قد حكيتم لنا كل هذه القصص الخرافية، لكان من المحتمل ألا نفقد إيماننا.

القسّ: ردّك هذا قد يكون مناسبًا لو قاله شخص آخر غيرك؛ لأنك كنت منذ البداية مختلفًا عن غيرك من الأطفال. فوفقًا لملفّك الذي أمامي، يبدو أنه كان هناك شيء آخر، لا تريد أن تحكي لي هنا الآن

عنه، أو ربّما أنت لا تريد أن تدخل في التفاصيل.

وولف (وقد بدا منفعلًا وعصبيًّا بعض الشيء): إذا كنت تعرف كلّ الحكاية، ولديك كلّ هذا الملف في يدك، بكل هذه الأوراق عن حياتي، فلماذا تصرّ على أن أحكيها لك من جديد؟

القسّ: أريد أن أسمع هذه التفاصيل على لسانك. قد تكون لديك وجهة نظر مختلفة، عن تلك الموجودة في ملفّ أوراقك.

(٢)

وولف: هناك مثلًا ذلك القسّ، الذي كان يتولّى تدريس حصص الدين لنا في المدرسة الابتدائية، الذي لاحظت أنه كان أكثر اهتمامًا بالأطفال من الأسر الغنيّة، عن الأطفال من الأسر الفقيرة، وكان غالبًا ما يبني حكمه هذا على أساس، مستوى ثراء الملابس التي يرتديها الأطفال. كان مفضوحًا جدًّا ويعتقد أنه أكثر ذكاءً منّا، لكن حتى الأطفال الصغار الأبرياء أدركوا حقيقته.

القسّ: ليس في مثل هذه التفاصيل ما يدعو إلى فقد الإيمان، فأنا أتفقّ معك في أن هذا القسّ هو نموذج تربوي فاشل.

وولف: إذا كان القسّ وهو الشخص المفترض فيه أن يكون مكرّسًا طوال حياته لخدمة الآخرين، يتصرّف مع الأطفال بهذه الطريقة المادية البحتة، فماذا تتوقّع من بقيّة أفراد المجتمع؟

القسّ: أدرك وجهة نظرك، إذن فلننتقل الآن إلى نقطة أخرى.

وولف: كان إيماني كبيرًا في اليوم الذي مارست فيه، طقس التناول من جسد ودمّ يسوع المسيح للمرّة الأولى؛ إذ اعتقدت فعلًا أنني بهذا الطقس أتوحّد مع يسوع المسيح، رغم أنني تألّمت كثيرًا بسبب وقوف طفل مثلي في الخامسة من العمر، لمدّة ثلاث ساعات دون السماح له بالجلوس مهما كان السبب، ينصت إلى لغة أجنبية لا يفهمها (اللاتينية)، ولا يعرف ماذا يُراد منه بالضبط، حتى أصابني الدوار ووقعت على الأرض.

(لحظة صمت).

هذه ليست عبادة بل تعذيب، خاصة وأنني حتى أمارس طقس التناول، كان عليَّ البقاء صائمًا عن الطعام والشراب قبلها باثنتي عشرة ساعة. مع ملاحظة أن الأجواء داخل الكنائس تكون خانقة بسبب زحام الناس، مما يساعد على انتقال عدوى أمراض الجهاز التنفّسي. كيف يمكنك أن تشرح كل هذا لطفل؟ أين هو الحسّ التربوي؟ أقول إنه منعدم الوجود في التربية الكنسية، التي هي ليست إلّا عبودية. ليس هكذا يمكننا تعليم الأطفال قهر الجسد ومقاومة رغباته. المشكلة هي أننا في سنّ الطفولة نصدّق كلّ ما يقوله لنا الأشخاص الكبار؛ لأننا نكون بلا حول ولا قوّة، واقعين بالكامل تحت سيطرتهم.

(لحظة صمت).

بل في الحقيقة قل لي الآن أيها القسّ المبجّل، لماذا ينبغي قهر

الجسد ومقاومة رغباته؟ أليس هذه هي الغرائز التي غرزها لنا الله في أجسادنا؟ فإذا كانت هذه الغرائز شرّيرة وهي من صنع الله، إذَنْ فهو شرّير. وإن لم يكن شرّيرًا فلماذا إذن وضعها لنا في أجسادنا؟ ثم يطلب منا مقاومتها ويعاقبنا على الرضوخ لها. المسألة ليست إلّا تناقضات وتناقضات وتناقضات لا نهاية لها.

القسّ (وهو يضحك): إن لديك شعورًا بالمرارة نحو الممارسات والطقوس الدينية، منذ أن كنت طفلًا صغيرًا، لكنك تتحدّث الآن كما لو كنت لا تزال نفس هذا الطفل الصغير.

وولف: الحقيقة هي أن ديانتكم المسيحية، سواء أكانت الكاثوليكية أو البروتستانتية أو الأورثوذكسية، لا تناسب إلّا عقلية الأطفال الصغار؛ لأن أي تفكير مهما كان قليلًا سيهدم هذه الديانة من أساسها.

القسّ (بقدر من الحدّة): أنت لست مؤهّلًا لإصدار مثل هذه الأحكام على الديانة المسيحية.

وولف: إذن سأقولها لك بشكل مباشر، أنا لا أعتقد في وجود ربّ يسيطر على كل شيء، أين هو المنطق في وجود الله، إذا كان الأشرار هم الذين يسيطرون على العالم، وأين هي قوّة سيطرة الربّ، مع وجود كل قوى الشرّ تلك التي تغزو العالم؟

(٣)

القسّ: إن ذلك الأسلوب البشري في التفكير، الذي تسمّيه أنت المنطق، هو الذي يعادي الله.

وولف: إن الله هو الذي يعادي الإنسان، فإذا كان الله هو خالق كل شيء، فهو إذَنْ خالق ميكروبات كل تلك الأمراض التي تحطّم الإنسان، وكلما نجح الإنسان في إيجاد علاج لأحد الأمراض، خلق الله له أمراضًا جديدة؛ حتى يظل مقهورًا طوال حياته. ليس هذا فقط بل انظر إلى حجم المهانة التي تصيب الجسد الإنساني عند التقدّم في السنّ، ويبدأ في فقد وظائف أعضائه واحدًا بعد الآخر، فهو اليوم لا يسمع وغدًا لا يرى وبعد غد لا يتكلم. هذه ليست أفعال محبّة، بل هي أفعال كراهية.

القسّ: إنها بداية حوار غير مبشّرة على الإطلاق بأي خير. ثم إننا نبتعد عن هدفنا من هذا الحوار. أنت حتى لم تجب بعد عن سؤالي.

وولف: لقد أُصبت بخيبة أمل كبيرة، بسبب الطقوس والمراسم التي تصرّون على ممارستها داخل كنائسكم الكاثوليكية، كما لو كنتم لا تزالون تعبدون آلهة وثنية. من أين جئتم بكل هذه الطقوس، والإنجيل يخلو منها تمامًا؟ إنها ليست إلَّا بقايا التراث الوثني.

(لحظة صمت).

ثمّ إنه مع وجود كل هذا العدد الهائل من التماثيل والصور التي تركعون أمامها، يبدو بوضوح أن كل ما تفعلونه به قدر كبير من التصنّع والافتعال والتمثيل والرياء، لا يمكن أن يتحمّله أي عقل ناضج، ولا يتحمّله إلّا الأطفال الأبرياء السذّج، الذين بمجرّد خروجهم من سنّ البراءة والسذاجة، تبدو لهم الحقائق واضحة تمامًا أمام أعينهم.

(لحظة صمت).

يكفي جدًّا النظر إلى الأزياء التي يرتديها كبار الكهنة، أثناء طقوس ما تسمّونه القدّاس. اسمح لي أن أسألك كيف يجرؤون على ارتداء هذه الملابس القشيبة الموشّاة بالأنسجة الحريرية، واضعين فوق رؤوسهم كل هذه التيجان الذهبية، في نفس الوقت الذي تمتلئ فيه كل البلاد المسيحية، بملايين الفقراء الذين لا يجدون ما يلبسونه أو ما يأكلونه.

(لحظة صمت).

هم يعرفون أن يسوع المسيح كان من الفقراء؛ إذ لم يكن له بيت ينام فيه ليلًا، فكان يضع حجرًا تحت رأسه وينام في العراء، ولم يكن له إلّا ثوبًا واحدًا، يغسله في بحيرة طبرية ويجلس إلى جواره حتى يجفّ. يقال حتى إنه لم تكن لديه أحذية، بل يسير حافي القدمين.

القسّ: انسَ كلّ هذا الآن، وحاول أن تعود بعقلك إلى الماضي؛ لتذكر لي كيف كانت حالتك الذهنية، عندما كنت في سن العاشرة، لنحاول أن نعرف ما هي الأخطاء التي وقعت، وكيف كان من

الممكن إصلاحها. ثق في أنني هنا لمساعدتك على تخطّي العقبات لا لمحاسبتك. مثلًا قل لي لماذا تعترض على وجود أشكال الفنون المختلفة من رسم ونحت وموسيقى داخل الكنائس؟ هذه كلها وضعت لمساعدة الناس البسطاء على معرفة أحداث الإنجيل والشخصيات المقدّسة.

وولف: أنا لم أقبل أبدًا فكرة أن يركع الناس أمام الرسومات والمنحوتات. غيّر الموضوع.

(٤)

القسّ: إذن أعطني مثالًا آخر على أسباب كراهيتك للكنائس.

وولف: هناك موضوع قد تحاول أنت أن تتجنّبه، وهو ممارسة الشذوذ الجنسي بواسطة بعض القساوسة من زملائك مع أطفال صغار. وسأبدأ بالتأكيد على أنه لم يحدث لي ولا لأحد أصدقائي، أن تعرّضنا لموقف مشابه. لكننا في ذلك السنّ المبكر كنا نستطيع، أن نلمح هذا السلوك وندركه، في بعض نظرات القساوسة أو لمسات أيديهم. هذا ناتج عن خطأ جوهري في نظام الكهنوت الكاثوليكي، يحدث فقط في الكنائس الكاثوليكية. وهو إصرار بابا الفاتيكان على بقاء القساوسة الكاثوليك في حالة العزوبية، بدعوى التفرّغ التام للعبادة وللخدمة. في حين أن هذا ضدّ طبيعة البشر.

قد يكون هذا مناسبًا للراهب الذي يعتزل العالم، ويعيش في صومعة أو قلاية داخل الصحراء، أما القسّ الذي يعيش في العالم، ويقابل كل يوم مئات النساء والأطفال، لا يمكنه أن يحافظ على عذريّته، بسب هورموناته وإفرازاته الجنسية. ليس أمامكم إلَّا أحد حلّين، إما إخصاء القساوسة، أو تركهم يتزوّجون. خذوا العبرة من الكنائس الأورثوذكسية والبروتستانتية، التي تحتّم على الرجل الزواج قبل الرسامة قسّيسًا.

القسّ: في هذا الموضوع أنت محقّ تمامًا.

(٥)

وولف: إذن ما دمت قد اعترفت أنت بوجود خطأ، سأعترف لك الآن ببعض أسرار طفولتي، ففي الحقيقة أنا لم أذهب إلى طقس التناول لأول مرة -الطقس الذي يدشّن كاثوليكيّتي- إلَّا لأن والدي وعدني بشراء ساعة ذهبية لي احتفالًا بالمناسبة. ثمّ لديّ مثال آخر، وهو أنني لم أضف كلمة (كاثوليكي) إلى بطاقة هويّتي، إلَّا لإرضاء أسرة زوجتي عندما تقدّمت لخطبتها، ربّما كان إصرارهم هو حرصًا منهم على مستقبل ابنتهم؛ لأن الكنيسة الكاثوليكية تمنع الطلاق. إلَّا أن هذا الإجراء بالنسبة لي لم يكن إلَّا كلمة مكتوبة على ورقة.

القسّ: إذن أنت كنت مجبرًا على إجراء مراسم الزواج وفقًا للطقوس الكاثوليكية؟

وولف: نعم بكل تأكيد، لقد فعلت هذا لإرضاء الأسرتين، ولتسلية أصدقائي الذين يعرفون عدم إيماني. عند سنّ زواجي كنت قد فقدت تمامًا أي مبادئ إيمانية قديمة.

القسّ (مغيّرًا مرّة أخرى دفّة الحديث، لكن بملامح وجه جادة جدًّا): هل تريد أن ترى صورة فوتوغرافية للربّ؟

وولف (متعجّبًا من الجدّية): أنا لا أعتقد أن لديك صورة فوتوغرافية للربّ.

أدخل القسّ يده في جيب داخل ثيابه، وأخرج منه حافظة أوراق من جلد التمساح، وهو لا يدرك أن وولف سيعتبر هذا دليلًا أكيدًا على ثراء القسّ الفاحش. خرج وولف من مكتب الكاهن. عاد إلى نفس الطريق الذي استعمله في الوصول هنا. مرّ بكنيسة وجد بابها مفتوحًا فدخلها. جلس على أحد المقاعد التي كانت كلها خالية. لم يكن هناك أحد غيره بالداخل.

عاد إلى تذكّر يوم حصوله على تناوله الأوّل، وكيف وقف كل الأطفال، الذين يحتفلون هم أيضًا بتناولهم الأول، في طابور طويل من صفّ واحد، في منتصف الممرّ الأوسط بين جناحي الكنيسة، أمام السلم قليل الدرجات المؤدّي إلى هيكل الكنيسة، حيث وقف القسّ وفي يده كأس التناول، بما فيه من عصير العنب غير المتخمّر، الذي تقول الكنائس إنه دمّ يسوع.

وكيف أنهم حفظوا عن ظهر قلب، التراتيل التي عادة ما تتلى في

مثل هذه المناسبة، باللغة اللاتينية التي لم يعد الأطفال يفهمون منها أي شيء؛ لأنهم لم يعودوا يدرسونها في مدارسهم، منذ أن حلّت دروس اللغة الإنجليزية، محلّ دروس اللغة اللاتينية، في كل مدارس أوروبا. إذَنْ هم يردّدون كالببغاوات كلمات لا معنى لها في عقولهم، وهم يفعلون هذا فقط حفاظًا على الشكل الخارجي للتقاليد. مجرّد وظيفة صوتية تملؤ الفراغ الهائل داخل الكنائس القديمة، التي يرتفع سقفها إلى خمسين مترًا فوق مستوى أرضية الكنيسة.

(٦)

بانتهاء طقس التناول من الأسرار المقدّسة، شعر وولف الطفل، بأنه أصبح أرفع قدرًا من الأطفال الأصغر منه سنًّا، الذين لم يحظوا بعد بمثل هذا الشرف الرفيع، الذي حصل هو عليه في ذلك اليوم، الذي عندما تعود ذكراه، تعود معها كل التفاصيل الصغيرة الأخرى، مثل الملابس الجديدة التي ارتداها لأول مرة في ذلك اليوم، والياقة المنشّاة والحذاء الجلد اللمّيع، ورائحة البخور التي تفوح في كل مكان، ثم العدد الكبير من جمهور الحضور، والألف شمعة أو أكثر التي أضاءت جوانب الهيكل بألف بريق أو أكثر. كل هذه المؤثّرات لعبت دورًا حاسمًا، في إقناع طفل العاشرة بجدّية المسألة، ولو إلى حين.

في تلك الزيارة اكتشف وولف كذلك مكان كشك الاعتراف، الذي ينقسم إلى جزأين بواسطة حاجز خشبي رأسي، حيث يركع

المعترف الخاطئ على ركبتيه في أحد الجزأين، في حين يجلس الأب كاهن الاعتراف على كرسيه في الجزء الثاني. المفروض ألّا يرى الكاهن شخص المعترف الخاطئ، بل ينصت فقط إلى صوته وهو يعترف بخطاياه وذنوبه، ثم يتلو الكاهن الصلاة التي تحلّ المعترف الخاطئ من خطاياه، أي تغفرها له.

طقس الاعتراف هذا هو طقس آخر من الطقوس الشكلية، التي حافظ عليها الكهنة في الكنائس؛ لأنها تعطيهم -في نظر جمهور كنائسهم- المزيد من السلطة؛ إذ ساد الاعتقاد في قدرة هؤلاء الكهنة على غفران الخطايا، بالنيابة عن الله، لأن يسوع قال يومًا لتلاميذه (ما تحلّونه على الأرض يصير محلولًا في السماء، وما تربطونه على الأرض، يظلّ مربوطًا في السماء)! لكن هل هؤلاء الكهنة هم على نفس المستوى الروحي لتلاميذ المسيح؟

كان الصبيّ وولف يتألّم من وضع ركبتيه على الخشب الجاف، لكنه لم يستطع أن يشكو؛ إذ كان عليه أن يتقبّل كل ما يقولونه له بالطاعة التامة، حتى يصبح ابنًا بارًّا ترضى عنه الكنيسة. في ذلك الزمن المبكّر من الحياة، كان صوت الكاهن الذي يردّ على تساؤلاته، من خلف الحاجز الخشبي، أقرب شبهًا بصوت قادم من السماء، بفضل شدّة اقتناع وولف وهو صبيّ بهذا الطقس الكنسي، عندما قيل له إن هذا الكاهن هو من يقوم بتمثيل الربّ على الأرض.

(٧)

هل حقًّا هناك شيء ما في السماوات؟ ربّ وملائكة وجنّة ونار؟ هذه الطقوس من تناول واعتراف وغيرهما، تجعل الطفل يعتقد ولو لبضع سنوات، أنه سيكون من بين المختارين لنيل الحياة الأبدية في الجنّة السماوية، تجعله يعتقد أنه أقوى من حروب الشياطين.

لكن في الحقيقة (يقول وولف بينه وبين نفسه)، إن سعادتي كطفل بالساعة الذهبية، كانت أكبر بكثير من سعادتي كطفل بنيل الأبدية. الأبدية لطفل العاشرة تقع على بعد آلاف الكيلومترات، فالموت بالنسبة لأطفال العاشرة هو شيء مجهول تمامًا، وغير ملموس في الواقع اليومي. لماذا لا يدرك المربّون الفاضلون الحقائق النفسية لذهنية الأطفال؟

هدية أخرى جاءتني في ذلك اليوم من عمّة تقيّة، وهي عبارة عن كتاب مجلّد بغلاف ملوّن جميل، به كلّ الصلوات التي تُتلى، أثناء طقوس القدّاسات اللاتينية الكاثوليكية، مكتوبة باللغة اللاتينية وإلى جوارها ترجمتها بالفرنسية، لتشجيع الشبيبة على تعلّم اللاتينية، التي كانت قد بدأت منذ أوائل القرن العشرين، في التحوّل إلى لغة ميّتة. هذا الكتاب رغم أنني لم أستعمله مرّة واحدة، إلّا أنني لم أجرؤ على إلقائه في القمامة.

في صباح اليوم التالي عندما التقيت بزملائي في الفصل، الذين شاركوني قبلها بيوم في تناول الأسرار المقدّسة. فوجئت عندما قال بعضهم إنهم رأوا يسوع المسيح نفسه، يمشي بين جنبات الكنيسة؛ ليبارك جميع الحضور. فوجئت مفاجأة غير سارة؛ لأنني لم أتمكّن من رؤيته، لذلك اعتقدت أن معموديّتي لم تقبل، ثم وصلت إلى حلّ أرضاني كثيرًا، وهو أن من رأوه هم ببساطة كاذبون، ثم أدركت بالتدريج حجم الخيال الخصب الذي تتمتّع به ذهنية الأطفال، وهو الخيال الذي لا يقع في دائرة الكذب. عندما فقدت الإيمان المسيحي تمامًا، في غضون سنوات قليلة لاحقة، لم أشعر بالحزن بل بالسعادة، شعرت كما لو أن حملًا ثقيلًا قد أُزيح عن كتفيّ.

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن

المدارس والجامعات

(١)

القسّ: السؤال التالي أشدّ صعوبة من كلّ ما فات، وهو كيف ساهمت دراستك الجامعية -كما تقول- في الإحساس بالعدم واللاجدوى؟ بل يمكنني حتى استعمال عبارة في الشعور بالاشمئزاز والنفور من مجرّد فكرة الوجود في هذه الحياة؟ الحياة التي تقول إنك لم تختَرها، بل هي واجب ثقيل مفروض عليك. لاحظ أن هذه الدراسة الجامعية، هي التي سمحت لك باختراع الماكينة، التي جعلتك تصل إلى هنا وتقف أمامي الآن، قبل الأوان الذي كان مقدّرًا لك من قبل.

وولف: في الحقيقة إن رحلتي الأولى إلى السماء، جعلتني أشعر بالعبث وبانعدام جدوى أي شيء، والآن أثناء رحلتي الثانية بدأ شعور بخيبة الأمل يغلب على تفكيري.

القسّ: لتذكر لي أولًا ما هي تلك الدراسات الجامعية بالضبط؟ وهل أنت اخترتها بإرادتك الحرّة؟ أم أنها كانت من بين ما تعتبره أنت مفروضًا عليك؟

وولف: في المدرسة الابتدائية كنت أشعر في البداية، أنني مجبر على دراسة بعض المواد الدراسية التي لا تعجبني، لكن بالتدريج أصبح الكثير من المواد الدراسية يعجبني، بل ويجعلني مستمتعًا بدراسته، بل إنني كنت أنتظر بداية الأعوام الدراسية المتتالية بشغف شديد، للحصول في بداية كل عام دراسي جديد، على المزيد من الكتب الدراسية الممتعة، وعلى حقيبة جلدية جديدة ممتلئة عن آخرها بالكرّاسات وبالأقلام من كل الأنواع والألوان.

(لحظة صمت).

أنا أشكر الدولة المدنية الحديثة في أوروبا، على جعلها الدراسة الابتدائية إجبارية، بل دعني أقول جعلها حتمية اجتماعية؛ لأن هذه الدراسة هي الحدّ الأدنى من العدالة الاجتماعية، ومن المساواة بين أفراد الشعب. الآن أصبح كل الآباء، مهما كانوا فقراء، مجبرين بحكم القانون، على إرسال أولادهم إلى المدرسة الابتدائية.

القسّ: عدا هذه المواد الدراسية، ألم تتعلّم في المدرسة فنون الرسم والموسيقى؟

وولف: لا لم يحدث.

نظر وولف حوله إلى محتويات الحجرة، بغير الكثير من الانتباه،

فلاحظ وجود تمثال نصفي من الجبس لرجل جالس، يبدو أن من نحته على دراية لا بأس بها بفنون النحت.

وولف: أبي لم يكمل تعليمه الثانوي، بسبب ظروف مالية سيّئة مرّ بها جدّي. لذلك كان مصرًّا على تعويض هذا النقص في ثقافته، بضرورة استكمال تعليمي، على الأقلّ إلى نهاية المرحلة الثانوية.

(٢)

وولف: ذهبت إلى المدرسة الثانوية التي اختارها العدد الأكبر من زملائي في المدرسة الابتدائية. كنت قد بدأت أشعر بأهمية الاحتفاظ بنفس الأصدقاء، لذلك ذهبت مع أصدقائي إلى نفس المدرسة، واستطعت التخلّص إلى حدٍّ ما من العزلة التي كانت مفروضة عليّ سابقًا، ومن بعض العيوب الأخرى لمرحلة الطفولة، واكتسبت طباعًا اجتماعية لم أكن أعرفها، ومنها:

أولًا: بدأت أختلط بزملاء من بيئات مختلفة، فتعلّمت منهم الكثير عن مدلول الانتماء إلى وسط اجتماعي، وبذلك تحرّرت من فكرة الأحكام المسبّقة على البشر، وفقًا للوسط الاجتماعي الذي ينتمون إليه، التي حاول والداي فرضها عليّ.

ثانيًا: هكذا بالتدريج تمكّنت باختياراتي الشخصية، من تكوين عناصر شخصيّتي الجديدة، من بين عناصر شخصيّات زملائي الجدد،

المختلفة تمامًا عن تلك العناصر، التي حاول والداي فرضها عليّ.

ثالثًا: أظهرت لي دراسة التاريخ والأدب، نماذج البطولة الشعبية، التي لم تكن واردة في تربية أبي وأمي.

رابعًا: أما حصص التربية البدنية، فقد ساعدتني على التخلّص من الخمول الجسدي، الذي عانيت منه في طفولتي، بسبب الأسلوب الحمائي المبالغ فيه لأبي وأمي.

القسّ: لماذا تصرّ على اتهامهما؟ من الواضح أنهما اهتمّا بتربيتك الذهنية، أكثر من اهتمامهما بتربيتك البدنية، بدليل حصولك دائمًا على مراكز متقدّمة في امتحانات نهاية العام الدراسي. في حدود معلوماتي، لا أحد من تلاميذ المدارس، يستطيع أن يجمع بين أن يكون الأوّل في حصص التربية البدنية، وفي نفس الوقت أن يكون الأول في حصص العلوم واللغات.

وولف: تعلّمت المكر والدهاء، بسبب سياسة أبي وأمي، في إصرارهما على أن أكون باستمرار الأول على الفصل، فعندما أدركت أنني أستطيع بذكائي الحصول على أعلى الدرجات، دون أن أكرّس وقتي كلّه للمذاكرة، بدأت في قراءة الروايات، وأن أخفيها تحت كرّاسات المدرسة.

(٣)

القسّ: أريدك أن تحدّثني قليلًا عن دراستك الجامعية، خاصة أنها كانت من اختيارك، ثم إنك كنت أثناءها طالبًا مواظبًا. السؤال هو: لماذا لم تترك هذه المثابرة -عندما كنت في العشرين من العمر- أثرها على حياتك الحالية وأنت في الثلاثين؟

وولف: في الحقيقة أنا أنظر الآن إلى هذه الفترة، التي قضيتها في التعليم، على أنها كانت فترة من المعاناة الشديدة، هي كتلة واحدة من ستّة عشر عامًا من الألم، ولا أشعر بالفرق الذي تذكره هنا، بين سنوات التعليم العام الاثنتي عشرة، وسنوات التعليم الجامعي الأربع. كنت أحيانًا أشعر بالملل، لكن إحساسي بضرورة تحمّل مسؤولية أمانة الدراسة هو ما جعلني أستمرّ.

(لحظة صمت).

إن الذي يبقى الآن في ذاكرتي هو بعض الصور والروائح المنفصلة، مثل شكل أغلفة الكتب الجديدة ورائحة الورق وأحبار المطابع، ثم صور الصفحات البيضاء، التي كنا نملؤها بالرسومات في حصص الدراسات المعملية، مثل رسومات الأجهزة الداخلية لجسم الضفدعة، بعد فتح بطنها أثناء تشريحها. رائحة مادة الفورمالين الكيميائية، التي تستعمل في حفظ جثث حيوانات التشريح من الفساد، بأن توضع معها في نفس الأحواض، ثم مشاعر الخوف في

ليالي الامتحانات، والاشتياق إلى بدايات الإجازات الصيفية.

(لحظة صمت).

يمكنك أن تسمّي هذا اكتساب عادات حياتية، أن يكون هناك وقت للعمل، ووقت آخر للراحة، لكني أسمّي هذا دناءة محاولة الكبار فرض أساليب حياتهم على الصغار، أي فرض النظام المطبّق نفسه على الصغار والكبار، أن يتكوّن موسم العمل من ٤٤ أسبوعًا، وموسم الراحة من ثمانية أسابيع، في حين أنه يمكن تخفيف المناهج الدراسية، والسماح للأطفال بمواسم إجازات أطول مرّتين. المشكلة هي أن الكبار ينسون أنهم كانوا ذات يوم صغارًا.

اليوم الدراسي محكوم بنظام على درجة كبيرة من القسوة، كأن الكبار الذين استهلكوا أغلب الزمن المتاح لحيواتهم، يحقدون على الأطفال وينتقمون منهم؛ لأن حيوات الأطفال لا تزال أمامهم لم يستهلكوا منها أي شيء بعد. الاستيقاظ بميعاد، والوجبات الثلاث بمواعيد، والواجبات المدرسية بمواعيد. لا يترك للطفل ولا حتى يوم راحته الأسبوعية؛ إذ يراقبه والداه أثناء أدائه لواجباته المدرسية. وهكذا لا فكاك إطلاقًا من القيود.

(٤)

نظام التعليم الحالي يسرق من الشباب أجمل أيّام حياتهم، فحتى أثناء الإجازات الصيفية، يطلب منك أداء بعض الواجبات المدرسية.

هم لا يتركونك أبدًا في حالك، بل يلاحقونك ويواصلون ضغطهم عليك طول الوقت، ويشغلونك بالتفكير في النجاح عامًا بعد عام، بحيث لا تجد وقتًا كافيًا للتفكير في أي شيء آخر. هم يخلقون لك طول الوقت أهدافًا مرحلية. وتتبع أنت هؤلاء السخفاء السفهاء، منقادًا إليهم دون تفكير، وتتحوّل بالتدريج إلى واحد سخيف سفيه مثلهم، واحد منهم يفكّر بطريقتهم. ولا فكاك.

وكل مجموعة جديدة من السخفاء السفهاء، تتبع المجموعة التي قبلها من السخفاء السفهاء، دون أي محاولة للتغيير أو للابتكار. هذا يجعلني أفكّر في عربات قطار، يركب أفراد كل جيل جديد عربة جديدة، ويعتقدون أنهم بالتالي متحكّمون في مصائرهم، لكن الحقيقة هي أنهم يركبون عربة ليست حرّة الحركة، فهي تتبع بقيّة عربات القطار، في السير على نفس القضبان الحديدية، في طريق مرسوم لا تخرج عنه، وإذا خرجت انقلبت. أسراب من الخراف والغنم، ينقاد بعضها إلى بعض، أو بالأحرى قوافل من الحمير والبغال.

لذلك كان قراري الأول هو أن أغشّ الآخرين وأخدعهم، وأن أبدأ بأبي وأمي، وأن أنتهي بالقساوسة والمدرّسين، فأجعلهم يعتقدون أنني قبلت أن أصبح واحدًا من البغال والحمير مثلهم، فالخداع هو الحلّ الوحيد، عندما تكون مكبّلًا بالقيود المنزلية والكنسية والمدرسية، فكنت أبدو لهم كما لو كنت أعيش مثلهم معتنقًا أفكارهم، لكني في الحقيقة كنت أعيش في أماكن أخرى من صنع خيالاتي.

القسّ: رغم كل ما قلته هنا الآن، فأنا لا أراك مخادعًا، فأنت قد أكملت الدراسة إلى نهايتها، وحصلت على دبلوم المدرسة الهندسية العليا، فأنت لم تعش حياتين متناقضتين كما تقول، إحداهما في العلن والأخرى في الخفاء.

وولف: أقولها لك مرة أخرى، لقد عشت حياتين، فليس معنى حصولي على شهادة إتمام الدراسة الجامعية؛ لإرضاء والدي والمجتمع، أنني لم أكن أهتم بالأدب والفن والفكر، لإرضاء رغباتي الداخلية، وبسبب بذل هذا المجهود المضاعف في التحصيل، أقرّ بأن سنوات الدراسة الجامعية استنفدت طاقتي الذهنية، وأهلكت طاقتي البدنية، بل يمكنني استعمال كلمات أكثر قوّة، مثل أن المدارس بشكل عام، والجامعة بشكل خاص قد أتلفتني بنوع من التلف الذي لا يمكن علاجه.

لماذا تجعلني مضطرًّا إلى تكرار ما سبق وأن قلته لك؟ يكفي أن تنظر إلى الحال التي عليها المدارس في أيّامنا هذه، لتدرك حجم التلف والفساد الذي يصيب التلاميذ فيها، فقاعات الدراسة المظلمة، تؤدّي إلى إصابة التلاميذ بأمراض العيون، والمقاعد المحطّمة إلى الإصابة بأمراض المفاصل، ومعامل الكيمياء والفيزياء تفوح منها روائح العفن، حتى الأفنية وقد غطّوها بطبقة من رماد الفحم الحجري، المستعمل في تجفيف الأرض الرطبة، لم يدركوا أن هذا العفن وذلك الرماد سيتلفان رئات التلاميذ.

انظر إلى المدرّسين الذين كلما تقدّم بهم السنّ، زادوا بلهًا وعتهًا عامًا بعد عام، بسبب إصرارهم على تكرار نفس الأشياء التي يقولونها في كل الفصول، عامًا بعد عام، دون أيّ تغيير أو إضافة، كأن العالم لا يتقدّم، حتى أصبحوا مثل الأسطوانات المشروخة، التي تدور بطريقة آلية دون تفكير. حاول أن توجّه إلى أحد هؤلاء المدرّسين، أي سؤال في المنهج الذي يقوم بتدريسه، لكن بشكل غير مباشر، خارج ما يحفظه، ستجد أن عقله يتوه منه. إن هؤلاء المدرسين يجعلون من التلاميذ، أشخاصا على نفس درجة البله والعته التي هم عليها. إن هذا الإنهاك لطاقات التلاميذ هو جريمة لا تغتفر.

(٥)

القسّ: أرجوك بدلًا من كل هذا الاستطراد، لنعد إلى موضوعنا.

وولف (وعلى وجهه علامات خيبة الأمل): لكننا أيها القسّ لا نزال في صميم موضوعنا. هذا النظام الأبوي الذي يرفض مناقشة الأفكار مع الأبناء، بحجّة أن الآباء أكثر دراية بمصلحة الأبناء، من الأبناء أنفسهم، يذكّرني بواحدة من عبارات الإنجيل، التي لم أعد أحفظ منها إلّا أقلّ القليل، وهي تلك التي تقول (الآباء يأكلون الحُصْرُم، والأبناء يعانون من آلام الضروس).

القسّ: إذن فأنت لا تجد أيّ نواحي إيجابية في نظام التعليم؟

وولف: حتى لو كانت هناك ناحية إيجابية، فإنها تتلاشى أمام أكبر ناحية سلبية، وهي أن المدرّسين يجعلون التلاميذ يعتقدون، أن كل ما يلقّنونه لهم هو حقيقي مئة بالمئة، ولا يمكن الشكّ فيه ولو بنسبة واحد بالمئة. فالمدرّسون لا يعرفون، أن زمن الحقائق المطلقة قد انتهى إلى غير رجعة.

القسّ: أنت تكرّر نفسك.

وولف: أنا أنتقد نظامك التعليمي، الذي هو في نظري ليس إلّا سلسلة من الأكاذيب. فأنتم مثلًا تمجّدون علماء الفيزياء، في حين يكتشف التلميذ أن مرتّب لاعب في فريق كرة القدم، هو أضعاف مرتّب عالم الفيزياء. فأيّهما يختار لمستقبله؟ هو من المؤكّد سيفضّل حصّة الرياضة البدنية، حيث يتعلّم أفضل أسلوب لتمرير الكرة، على حصّة الرياضة العقلية، حيث يتعلّم أسلوب استخراج الجذر التربيعي لأحد الأرقام. مدارس روما القديمة قبل ألفي عام، كانت أفضل من مدارسنا الحالية لهذا السبب بالتحديد، تخصيص وقت أكبر للرياضة البدنية، عن الوقت المخصّص للرياضة العقلية.

سأذهب إلى أبعد من ذلك. فمدارسنا الحالية لا تخصّص أي وقت للتربية الجنسية، ولا يحصل تلاميذنا على أي معلومات عن هذا الموضوع في أي مرحلة دراسية، في حين أن هذا الموضوع يهمّ كل التلاميذ الذكور والإناث، وسيتوقّف عليه مستقبل حياتهم الزوجية. فبدلًا من تدريس رواية (التربية العاطفية)، أقترح مثلًا أن تقوم بعض

بائعات الهوى المحترفات، بزيارة مدارس البنين والبنات، وتفسير ما يغمض عليهم وعليهنّ من أسرار الممارسات الجنسية.

(٦)

القسّ: ليس لديّ هنا إلّا أن أقول إنك تخرّف.

وولف: إذن يكفي جدًّا الوقوف عند هذا الحدّ من استجوابك لي.

ثم أحنى وولف رأسه، ووضعها بين كفّيه، بذراعين مسنودين إلى الكوعين المرتكزين على الركبتين. فجأة شعر بارتفاع درجة حرارة الجوّ. عندما أعاد النظر إلى أعلى حيث يجلس القسّ وجده قد اختفى. وجد نفسه فجأة في أرض صحراوية شاسعة، ممتدّة الأنحاء حوله، مليئة برمال تسطع بلون ذهبي، تحت شمس الظهيرة الدافئة. لاحظ وجود صوت رقيق لأمواج تأتي من خلفه. أدار ظهره فوجد مساحة شاسعة أخرى باللون الأزرق الداكن، على بعد أقلّ من مئة خطوة.

إنها مياه المحيط. ولكن أي محيط هذا؟ انفتح قلبه الذي كان مكلومًا قبل لحظات. ليس هناك مثل الأفق المفتوح في إراحة القلب من همومه. وهو هنا لديه أفقان. خلع حذاءيه وملابسه، وجرى المائة خطوة نحو الأزرق، وقفز في الماء. بدأت الموجودات حوله في الذوبان التدريجي، وفقدت الخطوط الخارجية لتكويناتها. ثم دخلت الموجودات حوله في حالة هلامية من الضباب، الذي بدأ خفيفًا ثم

زادت كثافته. ثم انعدمت الرؤية تماما.

ثم حدث له ما يشبه الدخول في دوّامة بحرية، حيث بدأ في الدوران حول نفسه ببطء، ثم زادت سرعة الدوران هذه بالتدريج. عندما هدأت حركة الدوران ثم توقّفت، فوجئ بأنه موجود من جديد في قمرة القيادة بالماكينة. كانت أطرافه على وشك التجمُّد من شدّة البرد. هو دون أي ملابس. لحسن الحظ هناك طاقم آخر من ملابس القيادة في أحد أدراج قمرة القيادة.

* * *

الفصل التاسع

الحياة العادية

(١)

اختار وولف من الطبق الذي أنهى فيه عشاءه عظمة كبيرة، ووضعها في طبق (ديبون) الكلب، الذي كان جالسًا على كرسيه، إلى مائدة الطعام أمام وولف، وقد أحاطت بعنق الكلب منشفة، حتى لا يندلق الطعام من فمه على ملابسه. شغل الصديقان والمرأتان أربعة مقاعد. كانت الحوارات بينهم قليلة؛ لأن المتحابين لا يحتاجون إلى كلمات كثيرة. من الغريب ملاحظة كم تتشابه الفتاتان.

ليل وفولا لهما نفس الشعر الطويل الأشقر، والقوام الرشيق، والشفاه التي تدعو إلى التقبيل. فإذا كانت فولا تتميّز بساقين أكثر رشاقة من ساقيّ ليل، فإن ليل تميّزت بجمال استدارة كتفيها. الفرق الحقيقي بينهما هو أن ليل زوجة، في حين أن فولا لا تزال عشيقة. إلَّا أنه كان من الممكن لدقيقي الملاحظة، معرفة أن عيني فولا الغزلانيّتين، يمكنهما إذا انزلق إنسانا العينين إلى الجانبين، أن يتحوّلا من عيون غزلان، إلى عيون نمور شرسة.

كانت الفروق النفسية أكثر أهمية. وولف كان يظنّ أن الحياة قد فرغت من معانيها، لكنها لم تصبح بعد حياة حزينة. في حين كان سافير الأصغر منه سنًّا بسبع سنوات، لا يزال يعتقد أنه يمكن انتظار شيء ما من هذه الحياة؛ إذ إنه لا يزال يعتقد أن الحياة لم تبح له بعد بكل أسرارها، إلّا أنها حياة ليست واضحة المعالم، وبالتالي هي غير قابلة للتصنيف.

أما المرأتان الشابتان فكان الاختلاف بينهما أكثر وضوحًا؛ إذ كانت ليل تعتقد أن الحياة هي سلسلة من النتائج الحتمية لتصرفّات الفرد. أما فولا الأصغر منها سنًّا بخمس سنوات، فلم تكن تشغل تفكيرها على الإطلاق بهذه المسائل المتعلّقة بماهيّة الحياة، بل كانت فقط مشغولة بأن تعيشها.

كانوا يأكلون بشراهة منقطعة النظير. كانت هناك أطباق لمأكولات مختلفة، لكن الطبق الرئيس في وسط المائدة، كان لدجاجة كبيرة الحجم، في طبق من الفخّار الأسترالي. كانوا يغرفون ملء الأطباق، ثم يأكلون حتى تفرغ الأطباق، فيعيدون ملأها. لم يكن وولف يحبّ أن يقف خادم خاص بجوار المائدة، كان يعتقد أن هذا يدعو إلى الإحساس بالعار، أن يقف إنسان يراقبه وهو يأكل، ولا يشاركه معه في طعامه. سكب وولف من زجاجة النبيذ في كأس سافير ثم في كأسه؛ فالمرأتان لا تشربان النبيذ.

خرجت الخادمة من المطبخ متّجهة إلى الحديقة، حيث جمعت

بعض ثمار أشجار الفاكهة، وعادت بها إلى المطبخ لتغسلها، ثم حملتها مغسولة ومجفّفة في طبق إلى المائدة. قدّمت لديبون بعض الفاكهة غير المغسولة. هي تتعمّد أن تقدّم له الفاكهة مختلطة بطين الأرض، لأنها لم تكن توافق على معاملته كإنسان، وتقصد تذكيره دائمًا بأنه مجرّد كلب.

وولف: أرجو ألا يضايقك تصرّف الخادمة هذا.

ديبون: لقد اعتدت منها على مثل هذا النوع من الصغائر، وقد اعتادت على أن تعاملني بهذا القدر من العنصرية، فهي تعتقد جازمة، أن البشر هم صنف أرقى من صنف الحيوانات، لذلك تذكّرني طول الوقت بدونيّتي.

كانوا يجلسون في حجرة جميلة، جدرانها الأربعة وأسقفها على مستويين، مغطّاة كلّها بألواح من الخشب البنّي اللون، المطلي بطبقة من البريق المعدني الذي يجعل الخشب لامعًا. هناك نافذة كبيرة بشكل نصف دائرة مغلقة بزجاج مائل إلى الزرقة. الأرضية كانت من البلاط البرتقالي الشاحب اللون.

هناك كذلك مدفأة مبنية في أحد الجدران من الطوب الأحمر الداكن، وقد وضعت فوق حافتها العلوية صورة بحجم كبير لرأس ديبون، عندما كان شابًّا في الثالثة من العمر، بطوق حول رقبته من الجلد المغطّى بقشرة من الفضّة. كما أن هناك حوض للأسماك، به الكثير من سيقان النباتات المائية.

(٢)

بعد الانتهاء من تناول الفواكه والحلوى، اقترح سافير أن ينتقلوا إلى الصالون، حيث يمكنهم استئناف السهرة، فهو لم يكن يشعر بالنعاس، فالساعة لم تتجاوز بعد العاشرة مساءً. كان سافير وفولا يشغلان إحدى حجرتي النوم بالطابق العلوي، منذ أن بدأ العمل مع وولف في بناء الماكينة قبل ثلاث سنوات، في حين كان وولف وليل يشغلان الحجرة الأخرى. وبقدر ما ينسجم الرجلان في العمل معًا، تنسجم المرأتان في الأمور النسائية التي تجمعهما معًا. كان الانسجام التام لحسن الحظّ هو سيّد الموقف.

كانت خطّة ليل هي الانفراد بوولف في حجرتهما، فهما لم يمارسا العلاقة الحميمة منذ بعض الوقت، إلّا أنها وافقت على امتداد السهرة حتى منتصف الليل، قائلة في نفسها إن هذا قد يسمح، بالمزيد من الاسترخاء لوولف، الذي لاحظت أنه منذ عودته من رحلتيه الفضائيّتين متوتّر إلى حدٍّ ما.

ليل: اتصل ببعض أصدقائك، من جيراننا في الحيّ، ممن قد يقبلون السهر والنبيذ والرقص، ولكن فقط حتى منتصف الليل.

وولف (وقد أمسك بسمّاعة التلفون): أي أصدقاء تقصدين؟

ذكرت له بعض الأسماء، فاتصل هو بهم فعلًا، وقبل بعضهم الحضور على الفور، على شرط المغادرة قبل منتصف الليل. كان وولف يفهم السرّ وراء رغبة ليل، في انصراف الأصدقاء قبل منتصف الليل. فجأة شعرت ليل بالرغبة في أن تبكي، وفي أن تخفي وجهها داخل وسادة كبيرة محشوة بريش الطيور، فهي تشعر بالابتعاد التدريجي لوولف عنها، وبعدم إقباله كما كان يفعل سابقًا، على ممارسة العلاقة الحميمة معها. لكنها مضطرّة أن تبلع حزنها الكبير بمجهود شاق.

كانت زجاجة النبيذ الأولى قد فرغت، فطلبت ليل من سافير أن يفتح زجاجة ثانية، وأن يملأ لها كأسًا؛ لأنها تحتاج هي نفسها إلى قدر من الاسترخاء. كانت فولا تفهم ليل جيدًا، لذلك قامت من مكانها وجلست إلى جوار ليل، وأمسكت بيدها وضغطت عليها ضغطة تعضيد خفيفة. أما وولف فقد انشغل بالنظر عبر النافذة إلى الجهة الغربية من السماء لحظة غروب الشمس. نحن في شهر يونيو وغروب الشمس هنا يكون في العاشرة مساءً. كانت لا تزال هناك أشرطة من اللون الأحمر الداكن، متناثرة على خلفية من سحابات سوداء، ثم بدأت هذه الشرائط في الانطفاء واحدًا بعد الآخر.

(٣)

بعد ربع ساعة بدأ وصول الأصدقاء، فوضع لهم وولف أسطوانة موسيقى راقصة، وفتح لهم ضلفتي الدولاب الذي يحتفظ فيه بزجاجات الخمور، حتى يصبّ كلّ منهم لنفسه من الزجاجة التي تروق له. حتى الرابعة صباحًا كان لا يزال الأصدقاء يشربون ويرقصون. لم يحترم أحد الوعد بالمغادرة عند منتصف الليل. في تلك اللحظة كانت ليل ترقص مع سافير. لم تعد تهتم بالمسألة التي كانت تتوقّع حدوثها عند الساعة الثانية عشرة. كانت قد رقصت مع كل الرجال الموجودين في هذه السهرة الاحتفالية. سأل الأصدقاء عن مناسبة الاحتفال فردّ وولف (نجاح رحلتي إلى الفضاء الخارجي)، دون أن يذكر المزيد من التفاصيل.

غادر وولف باحة الاستقبال حيث يرقصون، وذهب إلى حجرة مكتبه الموجودة في نفس هذا الطابق الأرضي، حيث يحتفظ بمرآة كبيرة، بارتفاع الجسم البشري، بحيث يستطيع الناظر إليها أن يرى نفسه من رأسه إلى قدميه. نظر إلى وجهه. سأل وولف صورته التي أمامه في المرآة (ماذا أصابك؟ ماذا ستفعل لتخرج من أزمتك؟ لكن بالأحرى أسألك أولًا ما هي بالضبط أزمتك؟). أصدرت صورة وولف في المرآة صوت شهقة طويلة جاء بعدها صوت زفرة طويلة. استمرّت عملية الشهيق والزفير لبعض الوقت.

وولف: هل هذا ما تريده؟ أن تتخاذل؟ أن تتشكّى باكيًا؟

ردّت الصورة: حاول أن تبقى هادئًا، إذا وصلت إلى مرحلة اليأس فستحطّم كلّ آمالك، بل ستفقد حياتك.

وولف: هل هذه نبوءة؟

الصورة: هذا تحذير.

وولف: كيف تتوقّع أن أتجنّب خيبة الأمل؟

الصورة: أنت أقوى من ذلك.

وولف: من الأفضل أن يصبح الإنسان خائب الأمل، على أن يتعلّق بآمال واهية.

الصورة: لا أوافقك الرأي.

وولف (بخشونة): أنا الذي أقرّر وأنت لا قيمة لك. أنا أختار جلاء الفكر، في حين أنك أنت تختار الأوهام.

فجأة اكتشف وولف أن شاربيه الكبيرين لم يعودا يعجبانه، فأخذ مقصًّا من على المكتب وأزالهما به، ثم ذهب إلى الحمّام ليحلق الشعر المتبقّي منهما بشفرة الحلاقة.

(٤)

عند عودته إلى قاعة الرقص، توقّف إلى جوار اللوحة الكبيرة المعلّقة على الحائط الرئيس، المعروفة باسم لوحة (تغيير الأجواء)، وقد اخترعها هو دون أن يبوح بأسرار صناعتها لأي شخص. هو يدرك أنه يسبق عصره. كانت هذه اللوحة قادرة على تحويل برد الشتاء إلى دفء، وتحويل حرارة الصيف إلى هواء منعش. كانت ليل سعيدة جدًّا بهذا الاختراع، وتجد صعوبة شديدة في كتمان السرّ، عندما تسألها صديقاتها أثناء زيارتهنّ لها في حرارة الصيف (من أين يأتي هذا الهواء المنعش؟).

ثم بضغطة واحدة على أحد الأزرار تتحوّل اللوحة من تغيير الأجواء إلى (كشف الأسرار)، وهذا هو ما لا يعرفه أي شخص عداه. تصدر عن هذه اللوحة الآن أشعّة إكس سينية *x ray*، يمكنها أن تخترق أجساد الراقصين والراقصات، الموجودين والموجودات أمامها في القاعة، وتلقي بنتائج هذا الاختراق على الحائط الموجود في الجهة المقابلة من القاعة. تكشف هذه الأشعّة عن حقيقة مشاعر الناس، من الرجال والنساء الذين يرقصون الآن معًا. تُظْهِر الصورة على الجدار المقابل مواضع القلوب، التي يكون لونها داكنا بقدر ما في القلب من إخلاص ومودّة ومشاعر صادقة، أما القلوب المخادعة فيكون لونها باهتًا، حتى إن مثل هذه القلوب الشرّيرة يمكنها أن تختفي تمامًا ولا

تكون لها صورة على الجدار على الإطلاق. كان موضعا قلب ليل وسافير شديدي الدكنة.

هذا هو موضع شكّه. لماذا يستمر في قبول وجود سافير وفولا معهما في المنزل، إذا كان قد بدأ يشكّ في سافير؟ لماذا لا يقدم سافير على خطوة الزواج من فولا التي تنتظر هذا بفروغ صبر؟ نظر وولف إلى قلوب الرجال والنساء الآخرين الذين يرقصون معًا، فوجد أن الظلال كلها داكنة. كان هناك ثلاثة رجال يرقصون مع ثلاث نساء، لكن كل رجل يرقص مع امرأة رجل آخر. وولف يعرف أن الرجال يتبادلون زوجاتهم فيما بينهم، بموافقة النساء، بل بترحيبهنّ.

كانت فولا تقف إلى جوار مائدة المأكولات، فدعاها وولف إلى الرقص، فتبعته بوداعة ولامبالاة. أثناء رقصهما معًا اقتربا من النافذة، فلاحظ وولف أن ضوء القمر ينعكس على أسطح المنازل القريبة، أما السحب فكانت مثل دخّان أبيض كثيف. قال: (دعينا نخرج في جولة على الأقدام) فقالت: (لا بأس). ثم مدّت يدها إلى طبق به ثمار كرز وأخذت منها حفنة في يدها. كانت السماء غير مستقرّة بسبب وجود كل هذه السحب التي تتحرّك طول الوقت تدفعها تيّارات الهواء أمامها. رغم هذا لم يكن الجوّ باردًا.

(٥)

كانا يسيران معًا وقد أخذ وولف ذراع فولا في ذراعه. عند المرور فوق الحدّ الفاصل بين الممرّ المغطّى بالحصي، والحديقة المزروعة بالحشائش، تعثّرت قدم وولف في هذا الحدّ الفاصل، وتشبّث بذراع فولا حتى لا يقع، إلّا أنها لم تتمكن من أن تحافظ على توازن جسميهما وسقطا معًا فوق الحشائش. فوجئا بأن الحشائش دافئة وطريّة، فقرّرا البقاء جالسين على الأرض، ثم تمدّدا بجسمين مفرودين متوازيين، أحدهما إلى جوار الآخر، بظهريهما على الأرض، وعيونهما إلى السماء. مع حرص شديد على عدم التلامس.

فولا مستمرّة في التهام الكرز. وولف منشغل بمراقبة نجوم السماء، بعد أن انزاحت السحب عن جزء كبير من السماء. ضايقه إلى حدٍّ ما صوت الكرز المسحوق تحت أسنان فولا. يداه تعبثان بالحشائش التي تعجبه رائحتها الطبيعية الندية. طال الصمت حتى كادا أن يذهبا في النوم.

وولف: أنتِ تدهشينني. لماذا منذ لحظات انفعلتِ بهذا الشكل على سافير؟

فولا: إنها تصرفّات سافير التي تثير أعصابي. ألم تلاحظ كيف أنه أثناء رقصنا، كلّما همّ بتقبيلي، تردّد واستدار ونظر خلفه، كأن هناك أحدا يقف خلفه ليراقبه.

وولف: إنه متوتّر بسبب ضغط العمل في الماكينة.

فولا: أتمنّى أن يكون هذا هو فعلًا السبب. ألا تستطيع أن تصطحبني معك في احدى رحلاتك إلى الفضاء الخارجي؟

وولف: القُمْرَة مصمّمة لشخص واحد. لكن هذا الطلب يدلّ على أن لديك ما أسمّيه الفضول العلمي.

فولا: في الحقيقة أنا ليس لدي هذا الفضول العلمي، فأنا لا أستعمل عقلي كثيرًا. أنا كسولة جدًّا. إلّا أنني راضية بحالي هذا؛ إذ لا أسمح لهذا الذي تسمّيه فضولًا أن يشغل عقلي.

وولف: إنك رقيقة وجميلة. اعطني من هذا الكرز.

كانا في ظلام شبه تام، فقد عادت سحب كثيفة داكنة إلى تغطية السماء بأكملها. شعر بأصابعها المنعشة وهي تتحسّس وجهه، كما لو كانت تداعبه، إلّا أن هذا لم يخطر على بالها، كل ما في الموضوع أنها كانت تبحث عن فمه، لتضع فيه بعض حبّات الكرز. عند اقترابها منه إلى هذا الحدّ، اختلط عطرها برائحة الحشائش.

(٦)

وولف: أحبّ رائحة عطرك.

فولا: أنا لم أضع هذا المساء أي عطور!

استدار وولف ببطء ناحيتها. ارتكزت رأسه مع نصفه العلوي

على يده اليمنى، التي ارتكزت بدورها على ساعد الذراع الأيمن. بهذا الوضع الجديد لامس عضد الذراع، جِلْد رقيق لحيوان صغير، كان مختبئًا في الحشائش. فتح وولف عينيه على قدر استطاعته، ليعرف ما هو هذا الحيوان.

وولف: هناك حيوان رقيق الجلد إلى جواري.

فولا (وهي تضحك): شكرا على المجاملة.

وولف: أنا لا أقصدك أنتِ، ولكن هناك فعلًا حيوان صغير يختبئ في الحشائش لا أعرف ما هو. لكن لا شكّ في أنه من الحيوانات الصغيرة آكلة الحشرات. هو خائف لذلك لا يتحرّك من مكانه. انصتي إلى ذلك الصوت الذي يصدر عنه، عندما تلامس يدي جلده. أصدر الحيوان صوتًا صغيرًا كأنه هرير قطّ. ثم لمعت عيناه الصغيرتان بلون أحمر برّاق، كما لو كانت هاتان العينان حجرين ثمينين. رفعه وولف من على الأرض ووضعه على جسد فولا، في المكان المحصور بين الثديين فوق الفستان.

فولا (وهي تضحك): إنه ناعم.

أعاد وولف رأسه إلى مستوى سطح الأرض. بعد هذه التحرّكات وجد وولف فمه، أمام منطقة التقاء ساعد ذراع فولا الناعم الأبيض بعضدها. مدّ شفتيه إلى هذا المكان من ذراعها وقبّله.

فولا: أودّ لو بقينا هنا حتى مطلع النهار.

وولف: لقد فكّرت في نفس الشيء.

وضع خدّه على كتفها. كانت فولا هي التي يمكن أن يقال عنها في ريعان الشباب. لم تظهر على جسدها بعد آثار الامتلاء بدهن سنوات العمر.

فولا (وهي تضحك): عندما نستيقظ في الصباح، سنجد زملاء هذا الحيوان الصغير اللطيف، وقد أحاطوا بنا من كل جانب.

وولف: يبدو لي كما لو أنني أشمّ رائحة زنابق الوادي، رغم أنني أعرف أن هذا ليس موسمها.

فولا: أعرف كيف يكون نموّه كثيفًا في مواسمه، نجلس في وسط الحقل ونمدّ أيدينا نلتقط الزنابق ونحن جالسين دون أن نحتاج إلى التحرّك.

وولف: هنا خلف رأسي هناك زهور من نوع آخر بلون بنفسجي لا أعرف اسمها.

فولا: أنا أيضًا أحبّها وأتمنى رؤيتها في كل مكان، ولكني لا أعرف اسمها، وإن كنت أعتقد أنها كذلك من الفصيلة الزنبقية.

سكتت لحظة ثم أضافت بانتشاء: أشعر براحة غريبة وأنا معك هنا بعيدًا عن الآخرين.

كان وولف قد عاد إلى التربيت بلطف، على ظهر الحيوان اللطيف، فأصدر هو الآخر صوتًا من الخوار الضعيف، يدلّ على الانتشاء. ناما حيث كانا، على هذه الأرض الدافئة الرطبة من الحشائش الكثيفة، دون المزيد من الحوار، وحولهما كل هذه العطور الفوّاحة. لم يسمعا

أصوات الهمهمات المتشابكة بشكل معقّد، التي بدت كما لو كانت قادمة من جهة المنزل.

(٧)

عندما امتلأ الكون بنور الصباح، عاد وولف إلى المنزل ليجد ليل لا تزال نائمة، ومن الصعب جدًّا إيقاظها، ربّما كانت مرهقة من السهرة الراقصة، التي من المحتمل أنها قد دامت إلى الفجر. ترك لها ورقة عليها بعض الكلمات إلى جوارها في الفراش، وخرج من المنزل ومعه ديبون، الذي كان يجرّ عربة صغيرة بأربع عجلات، حيث وضعت بعض الأدوات اللازمة للعمل المزمع إنجازه في هذا الصباح، مثل مجرفة للحفر في التراب، ومجموعة مختلفة الأحجام من المسامير، وأدوات الدقّ على الخشب، وأجهزة تتصل بها أنابيب لامتصاص السوائل.

مرّ وولف بالموقع الذي ترك فيه فولا، حيث وجدها لا تزال هي الأخرى مستغرقة تمامًا في النوم، رغم ضوء النهار الذي يغمرها. كان وولف في طريقه إلى موقع الماكينة. كان ديبون غاضبًا؛ لأنه لا يحبّ أن تربط إلى جسمه هذه العربة، وأن توضع بها كلّ هذه العدّة الثقيلة الوزن، فهو ليس إلّا مجرّد كلب، ولا ينبغي أن يعامل كما لو كان حصانًا. اعتاد ديبون على قضم باقات من الزهور الصغيرة التي تساعد على تحريك الأمعاء؛ إذ يبدو أنه كان يعاني في أمعائه من حالة إمساك مستديمة.

وولف: ألا تزال جائعًا تلتهم كل ما يقع تحت يديك؟

ديبون: إنه خبث منك أن تسخر من عجوز بائس مثلي، لا يجد القوّة الكافية لجرّ أطرافه على الأرض، فإذا بك تعلّق على كتفيه هذه العربة الثقيلة، وتملؤها له بما يزيدها ثقلًا.

وولف: أنت في حاجة إلى مثل هذا التمرين، حتى تحتفظ بقوّة عضلاتك؛ لأني إذا لم أجبرك على العمل، فستتحوّل حتمًا إلى كتلة من الشحم القذر، بسبب كلّ ما تصرّ على ابتلاعه في مصارينك. افترض يا أخي أن أحد الجيران من أصدقائنا، قد جاء ذات يوم ومعه كلبة شابة جميلة، فماذا ستفعل معها لو لم تكن محتفظًا بلياقتك البدنية؟

ديبون: لم أعد أبالي بأي شيء من هذا القبيل. والآن افصل هذه العربة عن كتفيّ؛ لأني أريد أن أذهب خلف تلك الشجيرات لقضاء حاجة ملحّة.

فكّ وولف العربة، وجلس على الحشائش ينتظر الكلب. هنا ظهرت ليل غاضبة، وقد أحسّ بوقع قدميها قبل أن يراها. كانت ترتدي فستانًا من الكتّان الناعم، وشعر رأسها المفكوك يقفز فوق كتفيها. انحنت عليه وأمسكت عنقه بيديها، كأنها تريد أن تخنقه.

ليل: لماذا لم توقظني؟

وولف: كان يبدو عليكِ الإرهاق من سهرة الأمس.

مشيا معًا حتى ظهرت لهما البراري المغطّاة بلون أخضر داكن.

وولف: يبدو لي أنكِ تسلّيت كثيرًا بالرقص مع سافير. أشعر نحوه بالغيرة.

ليل: وأنت يبدو أنك تسلّيت على الحشائش مع فولا، هي تجيد التقبيل أليس كذلك؟

وولف: أنتِ عبيطة، هذا لم يخطر لي على بال.

(٨)

تركت ليل زوجها يعمل في الماكينة، واتجهت في الطريق إلى المدينة، وهي تفكّر في نوعية الأسئلة التي ستطرحها على قارئة الطالع. بعد أن ابتعدت إلى حدٍّ ما عن الكومباوند الذي يقع فيه منزلها مع وولف، اقتربت من شوارع وسط المدينة التي تزدحم بالمشاة وبكل أنواع السيّارات، وتصطف على جانبيها العمارات المرتفعة. كان اسم شهرة قارئة الطالع هو (الشاخرة) أو (الناخرة). ولم تكن ليل تعرف السبب في هذه التسمية، التي لا توحي في الحقيقة بأن قارئة الطالع هذه هي شخصية محترمة.

وصلت ليل إلى البيت الخشبي الصغير الذي تسكنه هذه القارئة، الذي رغم حقارته يقع في قلب الحيّ التجاري للمدينة. كان يمكن الصعود إلى طابقه الوحيد، وهو أرضي مرتفع، بواسطة سلّم خشبي تآكلت درجاته، لذلك لزم الحرص الشديد أثناء الصعود خوفًا من السقوط. من الأمور المستهجنة الداعية إلى الاشمئزاز، أن درجات السلم تبدو كما لو أنها لم تكنس أبدًا منذ سنوات، بدليل انتشار خرق أقمشة ومزق أوراق من كل لون عليها. بالإضافة إلى هذا المنظر

القميء، تنتشر في المكان روائح السمك بالكاري والثوم، وهي الأكلة الشعبية الأرخص في أسواق المدينة.

عند وصول ليل إلى نهاية السلم، وجدت في استقبالها غرابًا غريب الشكل، واقفًا على الدرجة الأخيرة، ريشه كله أسود اللون باستثناء رأسه الناصعة البياض، وقد حمل في منقاره فأرًا ميّتًا. ليل لا تعرف إن كانت الغربان تأكل الفئران، أم أن هذا الغراب يقف هنا ليقدّم فأرًا هدية لكل زائر. ابتسمت ليل للغراب ثم طرقت الباب، بالمطرقة المعدنية المعلّقة عليه. جاءها صوت يقول: (ادخلي)، إلّا أن هذا الصوت جاءها لا من داخل البيت، بل من خلفها؛ لأن الشاخرة الناخرة كانت تصعد السلّم هي الأخرى.

داخل البيت، مشت ليل مع الناخرة، على مراتب فرشتها الناخرة على أرضية البيت، بسبب وجود تسريب مياه من أماكن غير واضحة مجهولة. انشغلت ليل بفحص الكرسي الفوتاي، الذي طلبت منها الشاخرة أن تجلس عليه، في حين انشغلت الناخرة بتفريغ بعض الماء من على الأرض، في مغرفة كبيرة كالتي تستعمل عادة في توزيع الأنصبة من حساء العشاء، على أفراد الأسرات كبيرة العدد. الغريب هو أن الناخرة كانت تقذف بالماء من النافذة، غير عابئة باحتمال سقوطه على أحد المارة. هذا هو الجوّ العام للزيارة.

جلست الناخرة إلى مكتب عليه مفرش قذر، وفراشة كبيرة محنّطة، أو هذا ما اعتقدته أولًا ليل، لأن ما حدث بعد ذلك هو أن الشاخرة، نفخت الهواء في اتجاه الفراشة فطارت تلك سريعًا. هناك كذلك احتمال أن

تكون هذه الناخرة ساحرة قادرة على الإتيان بالمعجزات، مثل معجزة إحياء موتى الحيوانات. أخرجت الناخرة أوراق الكوتشينة من تحت ملابسها، ثم وزّعتها بطريقة سحرية على المائدة أمامها.

الناخرة: لا أشمّ شيئًا لافتًا للانتباه في أوراقك. ابصقي على الأرض، ثم ضعي قدمك فوق البصقة.

فعلت ليل ما طلب منها بكلّ دقّة.

الناخرة: ارفعي قدمك الآن من فوق البصقة.

أشعلت الشاخرة نارًا صغيرة، ذات رائحة مثيرة.

الناخرة: هذه النار قادمة من إقليم البنغال، لتعمل ما فيه صالح كل الأجيال، من جيل الأجداد إلى جيل الأنجال.

اندهشت ليل لهذا السجع، لما له من جميل الوقع.

امتلأت الحجرة بنوع من الدخّان اللامع، ذي لون أخضر ساطع.

الشاخرة: يمكنني الآن أن أقرأ بعض الأخبار، عن شخص تكنّين له عاطفة خاصة، ستقع لكما بعض الأحداث التي ستهزّك بشدّة. اختاري ورقة من تلك الورقات الموجودة أمامك.

سحبت ليل ورقة من الكوتشينة، وأرتها للشاخرة.

الناخرة: سعادة كبيرة ستحطّ عليكِ، كما لو كنتِ ستتخلّصين من حمل أثقل كاهلك، وسيعثر شريك حياتك على ما كان يبحث عنه منذ مدّة طويلة.

الفصل العاشر

النســاء

(١)

رغم الدوّامة التي سحبته داخلها إلى قاع البحر، إلّا أنه تمكّن من الخروج. عاد إلى الشاطئ الرملي، وتمدّد في محاولة لاسترداد أنفاسه. ردّت إليه الروح بعد استنشاق هذا النسيم العليل المشبّع باليود والملوحة. كان المنظر أمامه هو اتساع المحيط على امتداد البصر، وقد سبق أن قلنا، إنه ليس هناك مثل هذا الأفق المفتوح، في تخفيف وطأة الهموم عن الإنسان، أو تقريبًا قلنا شيئًا قريب الشبه من ذلك. عندما أدار بصره إلى الموقع الذي كان قبل السباحة قد ترك فيه ملابسه، وجد إلى جوار الملابس سيّدتين بسيقان نحيفة مقوّسة.

اتجه عاريًا إلى مكان الملابس، وطلب منهما عدم الالتفات إليه لحين الانتهاء من ارتداء ملابسه. لكنهما لم تستجيبا إلى طلبه. كانتا سيدتين صغيرتين في الحجم، تضعان على رأسيهما قبّعتين متشابهتين

تمامًا من القشّ الأسود، وترتديان ملابس سوداء، وتضعان أقدامهما في أحذية صفراء. كما لو كان هذا هو الزيّ الرسمي لهما (اليونيفورم). بدتا له في الأربعينيات من عمرهما. ستتحدث إليه هاتان السيّدتان في حوار قد يطول قليلًا، وحيث إن اسميهما من الأسماء المحلية المعقّدة، فسنذكر فقط إذا كانت المتحدّثة هي الأولى أو هي الثانية.

الأولى: هل أنت مسيو وولف؟

الثانية: لو أنك أنت مسيو وولف، فقد أتينا إلى هنا خصّيصًا للقائك.

شعر وولف برجفة في جسده، ولم يعرف إن كانت بسبب ابتلال ملابسه، التي اضطر إلى الاستعجال في ارتدائها فوق جسمه المبتلّ قبل أن يجفّ، أم أنها بسبب وجود هذين الكائنين الغريبين أمامه.

وولف: ولأي سبب جئتما للقائي؟

الأولى: لاستجوابك في موضوع الحبّ.

الثانية: نعم في موضوع الحبّ، فنحن اختصاصيّتان في هذا الموضوع.

وولف: لن أجد أبدًا القدر الكافي من الحماس لأحكي لكما عن هذا الموضوع في حياتي.

الأولى: نحن مستعدّتان لسماع كلّ ما سيخطر على بالك.

الثانية: نعم كل ما سيخطر على بالك.

وولف (متوجّهًا بحديثه إلى الثانية): ما الداعي كلّ مرّة لتكرار نفس الجملة، فإما أن تصمتي أو أن تجدي جملة مختلفة، إذا استمرّ هذا الوضع فإن هذا الحوار لن ينتهي أبدًا.

إلا أن وولف رغم ذلك الموقف العدائي الذي يبدو أنه اتخذه ضدّ الثانية، قرّر أن يتعاون معهما، ويحكي لهما كل ما سيخطر على باله. عندما فكّر في هذا الموضوع، تذكّر على الفور حادثة وقعت له مع عمّه، عندما كانا على أحد الشواطئ، يمكن اعتبارها واحدة من أوائل ذكرياته الجنسية، أو بالأحرى واحدة من أوائل ذكريات الدهشة المتعلّقة بموضوع الحبّ في حياته.

(٢)

حكى لهما أنه كان يقضي بعض أيام إجازته الصيفية المدرسية، مع عمّه على أحد الشواطئ، عندما جاءت جلستهما على الرمال، إلى جوار أحد الأكشاك الخشبية التي تؤجّر للمستحمّين لتغيير ملابسهم فيها، في لحظة خروج امرأة شابة من الكشك بملابس الاستحمام. ابتعد وولف بعينيه عنها تأدّبًا أو خجلًا. أما العمّ فقد تابع الشابة ببصره، وهي ذاهبة في اتجاه البحر.

العمّ (بصوت مرتفع نسبيًا، كأنه يريدها أن تسمعه): يا لهما من ساقين جميلتين.

وولف (كأنه ينفي عن نفسه تهمة الإعجاب بهاتين الساقين): أنا في الحقيقة يا عمّي، غير قادر على رؤية مواضع الجمال التي تشير إليها حضرتك يا عمّي.

العمّ: ربّما بعد بضع سنوات يمكنك أن تفهم وجهة نظري فيما أراه أمامي الآن.

هذه الملاحظة جعلت وولف، الذي كان بالكاد في الرابعة عشرة، يشعر بالقلق من مستقبله. بالتحديد من فكرة أنه ذات يوم سيستيقظ من نومه، ويفكّر مثل عمّه، ويقول (يا لهما من ساقين جميلتين).

الأولى: ومتى حدث بالتحديد هذا التغيّر في وجهة النظر؟

وولف: الحقيقة هي أنه لم يحدث أبدًا، فأنا ما زلت أشعر بالتوتّر والقلق من رؤية سيقان جميلة، كأنني لا أريد، منذ كنت مراهقًا، أن أغيّر وجهة نظري.

الثانية: هل هذا معناه أنك لا تحبّ النساء؟

وولف: هذا غير صحيح، فأنا أحببت زوجتي، كما أحببت أخريات قبلها وبعدها، كنت أستطيع أن أبدي لهنّ الاعجاب بشعورهنّ وبأعناقهنّ، وأن ألمس تلك الأجزاء من أجسادهنّ، لكني لم أستسِغ أبدًا فكرة، أن أنظر إلى ساقي امرأة لا أعرفها، وأقول بصوت مرتفع (يا لهما من ساقين جميلتين).

(لحظة صمت).

كل أصدقائي أكّدوا لي أنهم منذ البلوغ، في حوالي الثانية عشرة

من العمر، دخلوا المرحلة الأولى، وهي مرحلة الانشغال بالفتيات، ومراقبة الفتيات، ومحاولة لفت انتباه الفتيات، وممارسة العادة السرّية أثناء التفكير في الفتيات. ثم بدءًا من سن السادسة عشرة، دخلوا المرحلة الثانية، وهي البحث عن ممارسة الجنس، ولو كان هذا مع بائعات هوى محترفات. ويبدو أنني كنت متخلّفًا عنهم في هذه المسائل؛ إذ إن هذا لم يحدث لي، بالنسبة للمرحلة الأولى، إلّا وأنا في حوالي سن العشرين، وبالنسبة للمرحلة الثانية إلّا منذ سنوات قليلة.

الأولى: في ظنّك ما هو السبب الذي أدّى بك إلى أن تكون مختلفًا عن الآخرين بهذه الطريقة؟

وولف: هل يمكنكما الانتظار بضع دقائق، فأنا قبل أن أجيبكما أريد أن أنظّم أفكاري.

(خمس دقائق من الصمت التام).

(٣)

وولف: سأذكر لكما هنا بقدر من الاختصار، كيف تطوّرت علاقتي بالفتيات، حتى الوقت الذي أقدمت فيه على الزواج.

- أنا منذ سنّ الثانية عشرة، كغيري من الصبية- كنت أشعر بالانجذاب نحو الفتيات، وكنت أشعر بشيء ما يفور في داخلي، قرب منطقة المثانة البولية، وكانت تحدث لي أحيانًا عمليات قذف للسائل المنوي أثناء النوم.

- إلَّا أنه بسبب عدم وجود صديق حميم، فأنا لم أعرف بمسألة الاستمناء إلَّا بعد العشرين، وهذه الحقيقة صادمة أحيانًا للبعض، فأغلب الرجال يعتقدون أن ممارسة الاستمناء مسألة ترتبط بالبلوغ، ولا يمكن تجنّبها، كأنها مسألة قدرية. لكني بمنتهى الصدق، لا أعرف من هي أول فتاة، شغلت بالي بعواطف الحبّ الجنسي، أي اشتهاء جسدها.

- بعد سنتين من الموقف المشار إليه أعلاه، على شاطئ البحر مع عمّي، بدأت ألاحظ أنه أثناء السهرات في حفلات الاستقبال التي يقيمها والداي، أن نظراتي تلتفت إلى السيّدات مرتديات أثواب السهرة، بظهور وأذرع عارية. لكني كنت صعب الطِباع؛ إذ إنني لم أفكر أبدًا في البوح بهذه المشاعر، لأي شخص مهما كان قربه مني.

- كان اهتمامي قد بدأ يزداد ببعض التفاصيل الفاتنة، مثل شعر الرأس، وبشرة العنق، والصوت الذي يمكن أن تستعمله المرأة كسلاح فتّاك في الإغواء. المرأة كائن جميل.

- في نهاية المراهقة كان الثديان كذلك قد بدآ في لفت انتباهي بشدّة، إلَّا إنني في الحقيقة، لن أصل إلى الاهتمام بالنصف الأسفل من البطن، إلَّا بعد سن العشرين، ثم إنني لم أصل إلى الساقين، إلَّا بعد منتصف عشريناتي.

- ثم إنني رغم حضوري للعديد من المناقشات الطويلة الفجّة، بين زملائي قرب نهاية مرحلة الدراسة الثانوية، إلَّا أن معارفي الجنسية

ظلّت غامضة جدًّا، وغير واضحة المعالم.

- الحقيقة هي أنني أشعر بالضيق الآن، لأني اضطررت إلى أن أذكر لكما، كل هذه التفاصيل عن حياتي الجنسية.

الأولى: لا تبتئس، فقبل عملنا في التحقيقات كنا نعمل في التمريض، وقد اعتدنا على مناقشة كل أنواع المشاكل الجنسية مع الرجال والنساء.

الثانية (وهي تضع يدها على كتفه لتطمئنه): نعم كنا نعمل في الحقل الطبي، وأنت كما لا شكّ تعرف فإنه لا حياء في العلم.

(٤)

وولف: سأستأنف إذن الحديث عن تاريخي الجنسي، إذ ظللت لفترة طويلة لا أفكّر في الأعضاء التناسلية للإناث، لم أكن أفكر إلّا في صدورهنّ وأردافهنّ، ثمّ تولّد لديّ بالتالي، الرغبة في لمس تلك الأجزاء.

- في البداية اعتقدت أن نموذج الجمال، هو الأنثى ذات الثديين والردفين الممتلئين، ولا أعرف كيف تطوّر خيالي، بحيث أصبح نموذجي الحالي في جمال الأنثى، هو الرشاقة والعضلات المتماسكة المتناسقة، بدلًا من الامتلاء.

- كانت القُبْلة تلعب في خيالاتي الجنسية، دورًا أكبر من الدور

الذي يمكن أن تلعبه الممارسة الكاملة للفعل الجنسي، أي اختراق عضو ذكري منتصب، لفتحة الأنثى التناسلية.

الأولى: يمكنك أن تتوقّف عند هذا الحدّ، عن سرد تاريخك الجنسي، فقد اقتنعنا أنك تحبّ النساء.

الثانية: لكن نودّ هنا أن تذكر لنا، كيف تمّت في حياتك الشخصية، عملية ترجمة هذه المشاعر والخيالات، إلى وقائع معاشة.

وولف: لماذا تستعجلان الوصول إلى النتائج؟ هل الوقت الذي تسمحان لي بالحديث خلاله قارب على النفاد؟

الأولى: لا تقلق، بل يمكنك أن تعاود الحديث بإيقاعك أنت.

وولف: أريد أن أتحدّث عن العوامل التي أدّت إلى كبح جماح رغباتي، فهناك الكثير من الأشياء الغبيّة البلهاء، التي كبحت جماح رغباتي، من بين هذه الأشياء ما هو واقعي حقيقي ملموس، لكن أغلب هذه الأشياء كان حججًا واهية أو خيالات وأوهام. مثلًا اعتقدت أنني لو اهتممت بالفتيات فإن هذا سيعطّلني عن الدراسة.

الثانية: والآن ما هو الموقف من هذا الاعتقاد؟

وولف: الإنسان دائم الشعور بالندم، لسبب أو لآخر، فلو كنت اهتممت بالفتيات وتعثّرت في دراستي لندمت، ولو اهتممت بدراستي على حساب العلاقات مع الفتيات لندمت.

(٥)

الأولى: وما هي العوامل الأخرى التي كبحت جماح رغباتك؟

وولف: كبريائي واعتدادي بنفسي وزهوي بذاتي. كنت أترفّع عن الدخول في منافسة على حبّ فتاة، فالفتاة الجميلة تنال غالبًا الإعجاب، من عدد من الرجال الشباب في نفس الوقت، وهم يدخلون في صراع بينهم بسببها.

الثانية: أنا لا أرى في تصرّفك هذا الكبرياء المزعومة، التي تظنّها فيك، بل في الحقيقة إن كلامك هذا دليل على التواضع.

الأولى: أنا أفهم وجهة نظرك، وسأشرح هذا الآن لزميلتي، فمسيو وولف يعتقد أنه إذا اعتبر أن امرأة هي على قدر من الجمال، فهذا معناه أن غيره من الرجال حتمًا سيرون نفس الشيء، والحقيقة أنك مخطئ يا مسيو وولف؛ لأن مقاييس الجمال عند الرجال، وكذلك عند النساء، جدّ مختلفة ولا تتفق أبدًا على أن يكون نفس الشخص الواحد، هو نموذج الجمال لكل الناس. اسمح لي أن أقول لك إن هذا هو أهم عيوبك، الاعتقاد أن قانونك الشخصي، ينطبق على جميع الرجال، في جميع أنحاء العالم.

وولف: إذن سأصل هنا إلى ثالث العوامل التي كبحت رغباتي، وهو التردّد، فأنا كنت أستنكف جدًّا، أن أذهب إلى امرأة وأصرّح لها

بمشاعري نحوها، لأني كنت أؤمن بأنه إذا قال رجل لامرأة إنها تعجبه، أو إنه يحبّها، فإنها في الغالب لن تكون على نفس الدرجة من الصراحة، فحتى إذا كنت لا أعجبها، فستحاول أن تحتفظ بي لبعض الوقت، لحين ظهور رجل آخر تعتقد أنه أجدر بها منّي. هذا هو عيب أنثوي معروف.

الأولى: لكني أرى هنا أنك تخلط بين معنيين هما الصراحة والوقاحة، ففي الحقيقة لا يحدث مثل هذا التصريح بهذه الفجاجة، فلا يذهب رجل إلى امرأة ويقول لها إنه يحبّها، دون أن يكون قد بدأ قبل فترة في مناوشات مختلفة، عبر النظرات وتعبيرات الوجه، كانت ردود أفعال المرأة تجاهها إيجابية، مما جعله يفهم أنه مقبول من هذه المرأة.

وولف: أؤكّد لكِ أنه مهما حاول الرجل أن يكون ذكيًّا لبقًا مع المرأة، فإن ردود أفعالها تظلّ غامضة مبهمة، وهو ما يجعلني حتى الآن أعتقد أن المرأة لا تزال تفضّل أن تُؤْخَذ عُنْوَة، كما كان رجال القرون الوسطى يفعلون مع النساء المنفردات في الأماكن الخلاء. باختصار إنها تحبّ أن تُعامل كفريسة.

(٦)

الثانية: وأنت إذا عدتَ إلى القرون الوسطى، هل كنت ستعامل المرأة كفريسة، قابلة للصيد والافتراس؟

وولف: أنا لم أحاول أبدًا الاقتراب من امرأة لا أعرفها، امرأة

تجهلني وأجهلها، فأنا أرى في مثل هذا التصرّف، اعتداءً واضحًا على الحرية الشخصية للمرأة.

الأولى: وأنت ما رأيك فيما يفعله الرجال الآخرون في مواجهة امرأة منفردة تعجبهم؟

وولف: إذا كانا في مكان خلاء نهارًا فسيبدأ حديثه معها بالأحوال الجويّة، وليلًا بالقمر والنجوم، أما إذا كانا في مكان مغلق، فغالبًا سيبدأ حديثه معها بالكلام عن جمال عينيها ولون شعر رأسها.

الأولى: وأنت ماذا كنت ستفعل؟

وولف: في الحقيقة فيما يتعلّق بشعر الرأس، فأنا لو رأيت مثلًا امرأة شقراء، أول ما أفكرّ فيه هو شعر العانة، وهل هو بنفس درجة شُقْرة شعر الرأس. هذه هي الفكرة التي تكون متسلّطة على دماغي.

الثانية: إذن أنت أيضًا تنظر إلى المرأة كفريسة.

الأولى: أتساءل كيف يمكن للمرأة أن تكون صريحة وواضحة كما تقول، في مجتمع ذكوري يضايقها وينغّص عليها عيشتها؟

الثانية: أنت تدّعي الثقافة والتحضّر، في حين أنك لا تزال تنظر إلى المرأة كجسد فقط لا غير، أنت تتمنى في داخل عقلك الباطن، لو كانت أسواق العبيد مستمرّة حتى الآن، فتذهب إليها لشراء امرأة بشعر عانة ذي لون أشقر.

وولف: لن أدافع عن نفسي إزاء هجومكما المشترك على طريقة تفكيري، لكن لاحظا فقط أن المرأة في أوروبا، ونحن نقترب من

منتصف القرن العشرين، خاصة بعد الدور الذي لعبته في الحرب العالمية الثانية، قد حصلت على المساواة المدنية مع الرجل تقريبًا بشكل تام، مع استثناءات قليلة.

الأولى: لا يزال أمام النساء طريق طويل للوصول إلى ما تسمّيه أنت المساواة التامة. كيف تجرؤ على مثل هذا الافتراء؟

وولف: هي على الأقل قد حصلت على حرّيتها الجنسية، فهي تملك حرّية التصرّف في جسدها دون تدخّل الكنيسة، أو دون الوقوع تحت وصاية رجال عائلتها، كما أنها حصلت على الحق في اختيار شريك حياتها، دون الوقوع تحت سيطرة الآباء، الذين كانوا حتى وقت قريب يختارون لبناتهم أزواج المستقبل.

(٧)

الأولى: فلنترك هذا الموضوع الشائك الذي لن نصل فيه إلى نتيجة، وأسألك هل كانت هناك كوابح أخرى لرغباتك الجنسية؟

وولف: نعم وهو الخوف من الإصابة بالأمراض التي تنتقل عبر الممارسات الجنسية، كما يحدث غالبًا عند التردّد على بيوت الدعارة. هذا الخوف كان غالبًا أقوى لديّ من الرغبة في الممارسة.

الثانية: وهذا هو ما جعلك تبقى على عذريّتك حتى سنّ متأخّر؟

وولف: نعم، كنت أقنع نفسي بأن هذا الخوف، هو سبب امتناعي

عن الممارسة، وكنت راضيًا بهذا الاقتناع، الذي كنت لا أسمّيه الخوف بل التعفّف. كنت سعيدًا بهذا الدور المزيّف الذي ألعبه في مسرحية الحياة، دور الرجل الذي يعاني من الصراع بين رغباته الجسدية وبين الموانع الأخلاقية.

الأولى: ولكنك بهذه الطريقة تفصل فصلًا تامًّا بين الروح والجسد، وأنا أقول لك إن الإنسان لا ينقسم بهذه الطريقة، فهو كلٌّ واحد.

وولف: وأنا أقول لكِ إن الجسد المادي يتشابه عند كل البشر، من حيث احتياجاته البيولوجية، وردود أفعاله العصبية، وتشريحه الداخلي، فإننا سنجد في كل أجناس الأرض، السود والبيض والحُمْر والسُمْر، نفس الأعضاء في نفس المواضع في كل الأجساد. أما من حيث التشريح النفسي، فشتّان بين ما يمكننا أن نجده لدى السود، مقارنة بما يمكننا أن نجده لدى البيض.

(لحظة صمت).

الدليل على ما أقول هو، تلك التجربة المثيرة للدهشة والانزعاج، التي قام بها شخص لم أعد أذكر اسمه، عندما فصل في سنّ الثالثة بين توأمين زنجيّين، وترك أحدهما في أفريقيا لدى والديه، في قريتهم الفقيرة البائسة، في حين أنه أخذ الآخر إلى أوروبا، وجعله يدرس في مدارسها، ويتعلّم لغاتها ويقرأ بها. التقى هذان التوأم من جديد في سن العشرين، فإذا بالأوروبي يحتقر الأفريقي، رغم أنهما يتشابهان جسمانيًّا ١٠٠٪.

(٨)

الأولى: بدلًا من كل هذا التنظير، لماذا لا تحكي لي قصّة أول غرام مشبوب في حياتك، نجح في أن يصل بك إلى أول لقاء جنسي، رغم كل تلك الموانع والكوابح والمحاذير؟

وولف: أنا لم أبدأ في محاولة مغازلة الفتيات، إلَّا في الوسط الاجتماعي والثقافي الذي أنتمي إليه، وهو طبقة البرجوازية المدينية ذات المستوى الاقتصادي فوق المتوسّط. وهذا النوع من اللقاءات في هذه الطبقة، لا يمكن تسميته غرامًا مشبوبًا، بل بالأحرى يمكن تسميته اقترابًا حذِرًا.

إذن كنت أختار بعقلي، الفتيات القابلات للمغازلة، بوعي ذهني تام، لا يلعب فيه القلب دورًا كبيرًا، لهذا سنجد أن أغلب هؤلاء الفتيات كنّ عذراوات، لم يسبق لهنّ على الاطلاق، إقامة أيّ علاقة مع الذكور مهما صغر شأنها، هذا النوع من الفتيات هو النوع الذي كان يمكن لوالدي أن يختارا لي منه زوجة المستقبل. كما كانا يفعلان في اختيار ملابسي. بنفس الحرص الشديد المبالغ فيه، وبنفس الرغبة في الحصول على الحدّ الأقصى من الأمان.

إن ما تسمّينه عاطفة مشبوبة، لا يمكن أن يحدث هكذا بشكل هادئ، فالعاطفة المشبوبة هي انفجار بركان من الانفعالات، أقرب إلى العنف الجسدي والخشونة البدنية، بحيث يكون جسدا العاشق

والمعشوق، في حالة من التلهّف، يستحيل معها أن يظل الجسدان ساكنين، أو حتى أن يظلا مُسيطرًا عليهما. العاطفة المشبوبة هي خارج حدود السيطرة.

الأولى: أنا بصفتي دارسة للكيمياء الحيوية، أؤكّد لك أن بعض التفاعلات الكيميائية في الجسد البشري، يمكنها أن تبدأ في هدوء تام، إلّا أنك محقّ في أنه في حالة تتابع الأحداث، وتخليق مركبّات متتالية، يمكن للعملية الكيميائية أن تنتهي بانفجار عنيف.

الثانية (وقد بدت عليها ملامح خيبة الأمل): إذن نفهم من ذلك أنك لم تختبر أبدًا، ما يمكن أن نسمّيه عواطف مشبوبة.

وولف: حدث أحيانًا قبل زواجي، أن شعرت بقدر من الانفجار العاطفي، لكن ردّ الفعل المعتاد من التردّد، بسبب الخوف من احتمال الإصابة بالأمراض الجنسية، كان يكبّلني. كما أنه قد ظهر ردّ فعل جديد، وهو الاحساس بالذنب تجاه النساء، خوفًا من جرح مشاعرهنّ، الاحساس بالذنب الذي تغذّيه دروس التربية الدينية المسيحية، الإحساس بالذنب الذي كانت له، بعض التأثيرات السلبية، حتى على علاقتي بزوجتي.

الأولى: في الحقيقة يهمّنا جدًّا أن نعرف تفاصيل هذا الموضوع.

وولف: حسنا، لقد تزوّجت لأنني أحسست جسمانيًّا بالحاجة إلى امرأة. وكانت فكرة الزواج في سنّ مبكّر تروق لي. لأنك في سنّ الشباب تكون في صحّة جيّدة، وتستطيع إرضاء زوجتك. ثم إنني

عثرت على من اعتقدت أنها مناسبة لي. وهكذا حدث مع زوجتي التعارف الجنسي التدريجي، الذي سمح لكل منا باكتشاف جسد الآخر واحتياجاته الجنسية بالتدريج، وغنيٌّ عن القول أن زوجتي كانت حتى ليلة زفافنا لا تزال عذراء. سأتوقّف عند هذا الحدّ من الكلام.

❊ ❊ ❊

الفصل الحادي عشر

الضريبة

(١)

عندما استدار تاركًا السيدتين واقفتين، خلع ملابسه وألقى بنفسه من جديد في الماء. غاص إلى الأعماق، ثم سبح قليلًا وعاد إلى الشاطئ. وجد فتاة عشرينية في رداء الاستحمام، تبتسم له ابتسامة كبيرة. السيّدتان اختفيتا. الفتاة تفرد جسمها على رمال الشاطئ، فيما يُسمَّى بحمّام الشمس. وولف اقترب منها، وترك جسده يسقط إلى جوارها.

وولف: أين تضعين اللوحة النحاسية التي تحمل رقمك؟

الفتاة: هنا على رسغ يدي، أنا اسمي كارلا.

ومدّت ذراعها الأيسر أمام وجهه، ليقرأ على لوحتها النحاسية، اسم (كارلا) محفورًا على اللوح النحاسي، المزروع في بشرة رسغها.

وولف (بقدر من المرارة): هل أنتِ أيضًا قد أتيتِ لاستجوابي؟

كارلا: نعم أنا هنا لهذا الهدف. قل لي أولًا بأول ما الذي ينبغي أن أنقله إلى خالتي.

وولف: هل واحدة من هاتين السيدتين الكريهتين المؤذيتين هي خالتك؟

كارلا: نعم. ألا ترى شبهًا بيننا؟ ثم إنك كنت أكثر لطفًا في الماضي القريب، ماذا حدث لك؟

وولف: إنهما خنزيرتان قذرتان تحترقان بالرغبة الجنسية المكبوتة.

كارلا: أنت تبالغ فهما لم يطرحا عليك أيّ أسئلة وقحة أو خليعة.

وولف: أؤكّد لكِ أنهما مكبوتتان جنسيًّا، ولم أتعاطف معهما البتّة.

كارلا: من هو إذن الجدير بتعاطفك؟

وولف: في طفولتي كان هناك عصفور يأتي كلّ صباح إلى نافذتي، واقفًا على غصن شجرة يقترب كثيرًا من النافذة، كان يوقظني بطرقات خفيفة من منقاره على زجاج النافذة. وكانت هناك قطّة باللونين الأبيض والأسود، تعيش في حديقة منزل طفولتي، اعتادت أن تلعب معي في الحديقة، لكنها كانت ترفض دخول المنزل، أعتقد الآن أنها كانت تعتبر أن حرّيتها، أكثر أهمية من البقاء في منزل مغلق، أغلب فترات النهار والليل. لذلك أنا أترك لكلبي ديبون باب المنزل مفتوحًا، رغم أن الكلاب أقل من القطط اهتمامًا بالحرّية.

أعاد وولف النظر إلى الفتاة، فإذا بها فجأة تبدو له جميلة غضّة نديّة. عندما أدركت تغيّر نظرته إليها، انطلقت في الضحك فجأة، وتحرّكت في اتجاه البحر، وهو يتابعها بنظره، حتى غطست بجسمها كله في الماء. انتظر دقيقة حتى تخرج، ليستأنف حديثه معها. لكن مرّت خمس دقائق، ثم عشر دقائق، ولم تخرج الفتاة من الماء. وولف لا يفهم ماذا حدث. مشى على الرمال وهو يشعر بتهالك في جسده، وبإحباط في روحه. لمح كوخًا، بدا كما لو كان قد ظهر فجأة على شاطئ البحر، واقترب منه. كانت للكوخ نافذة ظهر فيها وجه رجل.

(٢)

عندما اقترب منه وجد أنه يضع على رأسه قبّعة صفراء، وحول رقبته ياقة منشّاة برباط عنق أسود. أعلى النافذة وجد وولف كتابة بحروف صغيرة تقول (موظّف الضرائب). وضع وولف مرفقيه على حافة النافذة، مقتربًا بذلك من وجه الرجل.

الموظّف: ماذا تفعل هنا؟

وولف: أنتظر أن تستجوبني كما فعل الآخرون.

الموظّف: يجب أولًا أن تدفع لي الضريبة.

وولف: عن أيّ ضريبة تتحدّث؟

الموظّف: ضريبة النزول للاستحمام في ماء البحر، لقد شاهدتك

وأنت تنزل في الماء، أليس كذلك؟

وولف: كيف يمكنني أن أدفع أي شيء، وأنا كما تراني بملابس الاستحمام، وليس لديَّ أيّ نقود؟

الموظّف: يجب أن تدفع لي الضريبة.

كان الكوخ يلقي بظلّه على وولف، الذي فضّل البقاء في مكانه لبعض الوقت، بعيدًا عن حرارة الشمس.

وولف: ما هو اسم حضرتك؟

الموظّف: لن أجيب عن أي سؤال إلّا بعد أن تدفع لي الضريبة.

وولف: لن أدفع لك أي شيء، وسأمشي الآن من أمامك، ولو حاولت أن تلحق بي فلن تقدر.

الموظّف: لماذا تعتبر نفسك استثناءً عن القاعدة؟ إن كلّ زوّار الشاطئ يدفعون الضريبة.

وولف: هل هذا هو كلّ ما تفعله في الحياة؟ أن تجعل الناس يدفعون الضريبة؟ يا لبئس حالتك الإنسانية!

الموظّف: وأنت ماذا تفعل في الحياة؟ أنت وفقًا لملفّاتك التي لديّ، لا تزيد عن كونك رجلًا عاطلًا عن العمل.

وولف: في هذا العالم القذر، يكفي المرء أن يكون قادرًا على البقاء حيًّا.

الموظّف: هذه الإجابة غير لائقة على وجه الاطلاق. يجب أن

يكون لكل شخص مهنة يحصل بها على قوت يومه. إذن فأنت عاطل عن العمل.

وولف: لم أرفض أيّ وظيفة عُرِضَت عليّ، لكني لم أجد الوظيفة المناسبة.

الموظّف: أنت عاطل عن العمل، ويجب أن تدفع الضريبة.

(٣)

طرق وولف بقبضة يده على جدار الكوخ، فشعر أنه يمكنه أن يسقط هذا الجدار الهشّ، ببضع ضربات متتالية من قبضته.

وولف: أنصت إليّ جيدًا أيها العجوز المقيت، إن إصرارك العنيد على جعلي أدفع ضريبة لا أريد أن أدفعها، سيجعلني أتطاول عليك بيدي، وأنا أرى أنك لن تستطيع أبدًا أن تتحمّل ضربتين متتاليتين من قبضتي. قل لي ماذا يمكنك أن تفعل لتجبرني على الدفع؟

الموظّف: ادفع الضريبة.

وولف: أنت تضطرّني الآن إلى أن أستجيب للغريزة. فأنا لديّ الآن رغبة غريزية في تحطيم كل ما هو غير مفيد، كل ما هو طفيلي يعيش على امتصاص دماء الآخرين.

وضع وولف يديه الاثنين على جدار الكوخ، ودفعه بهما إلى الخلف، فمال الجدار أولًا ثم بدأ في الانهيار.

الموظّف (صارخا): كوخي.

رغم ذلك ظلّ جالسًا في مكانه خلف النافذة على كرسيه.

وولف: أنا حذّرتك بما فيه الكفاية، لكنك في اللحظات القادمة ستجد جدران كوخك الأربعة وقد انهارت على الأرض.

الموظّف: سيكون تهوّرك هذا سببًا في مضايقات كثيرة لك، فأنا سأكتب الآن تقريرًا عنك أقدّمه إلى رؤسائي.

أمسك وولف برقبة الموظّف بين يديه. بدأ الرجل في الأنين.

وولف: اخرج من كوخك وسنكتب معًا هذا التقرير.

الموظّف: اتركني الآن فورا وإلا سأستدعي حرّاسي.

وولف: كيف ستستدعيهم وأنت ليس لديك هاتف؟ اخرج من الكوخ وسنذهب لنتنزّه قليلًا فوق الرمال.

كان وولف مستمرًّا في الإمساك برقبة الرجل بين يديه. ثم ترك العنق ليجذب الرجل من ذراعيه، عبر النافذة إلى خارج الكوخ.

وولف: لقد قرّرت أن أتخلّص من كلّ ما يضايقني، ومن العوائق التي واجهتني في حياتي. وحيث أنك الآن تضايقني، فسأبدأ أولًا بالتخلّص منك. لقد عذّبت نفسي كثيرًا بالانحناء أمام العوائق. والآن سأبدأ في التمرّد.

(٤)

ترك وولف رقبة الرجل، فسقط على ركبتيه على الأرض. انحنى وولف على الرمال وملأ قبضة يده بحفنة منها وضعها في فمّ الرجل.

وولف: حفنة من أجل الطفولة المعذّبة.

حاول الرجل أن يبصق الرمال التي في فمه فلم يستطع.

وولف: وحفنة أخرى من أجل محاولة الكنيسة التسلّط على أفكاري.

بدأ الرجل المحني على الأرض في الإحساس بالاختناق، بسبب وصول الرمال إلى حنجرته.

وولف: وحفنة ثالثة من أجل المدارس الكئيبة.

هنا بدأت الرمال في الدخول إلى القصبة الهوائية. وبدأ وجه الرجل في التحوّل إلى اللون الأزرق.

وولف: وحفنة رابعة من أجل العذاب في الحبّ، ثم تأتي أنت لتطالبني بدفع الضريبة، عليك أن تبتلع كل هذه الرمال أيها اللعين.

كان الرجل أضعف من أن يقاوم وولف، وهكذا بعد محاولات يائسة بيديه، للخلاص من يدي وولف، استسلم لقدره، وقد بدأت علامات الاختناق تبدو عليه، في زرقة لون جسده كله.

وولف: وحفنة خامسة من أجلك أنت وحدك، أيها الموظّف

اللعين، لأنك قبلت هذه الوظيفة اللعينة، وهو ما أدّى أخيرًا إلى انفجاري النهائي.

أدرك وولف أن الرجل قد مات، عندما جحظت عيناه، وتوقّفت يداه عن الحركة.

وولف: ليس هناك أكثر من الشخص الميّت وِحْدة وعُزْلة وثباتًا واستقرارًا وخلاصًا من أي قلق، ليس هناك أكثر من الشخص الميّت اتساقًا مع وظيفته الجديدة في عالم الموتى.

(٥)

ترك وولف المكان حيث جثّة الرجل، واستأنف المشي بمحاذاة الشاطئ إلى جهة غير معلومة. اختفت الشمس خلف طبقات من السحب الرمادية، ثم أصبحت السماء سوداء تمامًا. تغيّرت فجأة طبيعة الأرض التي يمشي عليها وولف، من الرمال الصفراء إلى الأحجار السوداء. ثم بدأت الأرض المنبسطة تتحوّل إلى الارتفاع التدريجي بزاوية بسيطة، ثم أصبحت زاوية ميل الأرض توحيّ بأنه في سبيله إلى ارتقاء تلّ أو جبل. ثم أصبح ارتقاء الجبل أشدّ صعوبة، حتى إن وولف احتاج إلى استعمال يديه في التعلّق بالصخور.

فجأة وجد وولف نفسه أمام سور مرتفع، مبني بصخور من نفس طبيعة الصخور الجبلية، تغطّيه النباتات المتسلّقة ذات السيقان الممتلئة

بالأشواك، من فصيلة العَرْعَرْ وهو من جنس الشجيرات الصنوبرية. أصبح هذا الجدار الآن في وضع رأسي تمامًا، واختفت النباتات، ولم تعد في السور بروزات كافية، تسمح باستعمال اليدين والقدمين في تسلّقه.

كانت عضلات الذراعين والساقين، المنقبضة بشدّة طوال رحلة الصعود، قد وصلت إلى مرحلة ما قبل الإنهاك التام، في محاولة للبقاء متعلّقًا بالصخور، بل ملتصقًا بالجدار كما تفعل ذبابة. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الجروح، في صدره وذراعيه وفخذيه وساقيه وقدميه، بسبب أشواك النباتات المتسلّقة، فهو لا يزال بلباس الاستحمام.

وقبل أن تنقطع أنفاسه تمامًا من الإرهاق، وصل في النهاية إلى حافة ما اعتقد أنه سور، لكنه اكتشف على الفور، أن ما اعتقد أنها نهاية السور، ليست إلّا فوّهة بركان، ليس تمامًا في حالة خمود، وليس تمامًا في حالة غليان. هنا من هول المفاجأة انفلت القدم، وبدأ الجسد في رحلة الهبوط السريعة، من هذا الارتفاع الشاهق، يتدحرج مئات المرّات، إلى مستوى سطح الأرض، الذي يبعد بضع مئات من الأمتار.

* * *

الفصل الثاني عشر

الأشبـــاح

(١)

ملحوظة: الشخص الذي نعرفه باسم سافير، يحمل اسمًا آخر وهو لابيس. وهما على كل حال من بين الأسماء المعروفة لبعض الأحجار الكريمة، فالسافير *sapphire* هو الياقوت الأزرق، في حين أن اللابيس لازولي *lapis lazuli* هو اللازورد. وليس لهذا أي مدلول نفسي بخصوص شخصية هذا الرجل، فيما يتعلّق بوجهة نظري كمؤلّف، فأنا مثلًا لا أعتقد أن هذا الرجل هو جوهرة نادرة، والمسألة ليست إلّا أن هذين الاسمين كانا قد أعطيا له عند مولده، فأطلق عليه أبوه أحد الاسمين، في حين أطلقت عليه أمه الاسم الآخر. يجوز أنهما كوالدين محبّين كانا يأملان فعلًا في أن يصبح ابنهما، جوهرة نادرة بين صنف الرجال، إلّا أن هذا لم يحدث. نعود إلى الرواية.

كانت فولا مستغرقة في النوم على الفراش، في الحجرة التي تشغلها مع لابيس في منزل وولف. دخل لابيس من الباب وتمدّد إلى جوارها فاستيقظت. مدّ ذراعه ليضعها خلف عنقها وشعر رأسها. كان يشعر بالخوف، لذلك بدت على تصرّفاته علامات التردّد. أما فولا فقد شعرت بالخدر في أطرافها الأربعة، بسبب طول فترة رقادها في الفراش.

كانت المئات من ذرّات الغبار تبدو وهي تتحرّك في جوّ الحجرة، بسبب ضوء الشمس القوي الآتي من النافذة. عندما اختفت الشمس لحظات خلف السحب، اختفت ذرّات الغبار. ومثلما يحدث في كل مرّة يقترب منها لابيس، شعرت فولا بوخزة في قلبها، كأنها تخاف مما يمكن أن يحدث بينهما.

مدّت ذراعها الأيمن وخلعت بيدها اليمنى فردة حذائها الأيسر، ثمّ مدّت ذراعها اليسرى وفعلت نفس الشيء بحذائها الأيمن. قامت بخلع هذين الحذاءين بتمهّل شديد. هي تعلم كمّ يحبّ قدميها. تركت الفردتين ترتطمان بالأرض بصوت مسموع. كان لابيس يتابع حركاتها بعينيه. بدت له شفتاها الممتلئتان، كما لو كانتا ثمرتي فراولة ناضجتين.

استمرّت فولا في حركاتها البطيئة وهي تفكّ أعلى الفخذ، رباط جوربها الأيمن، ثم تخلعه ببطء على مراحل، وتبرمه حتى الركبة، ثم حتى كعب القدم، ثم تفعل نفس الشيء بجوربها الآخر. هي تعلم كم

يحب ساقيها وفخذيها. كان الجوربان من نسيج خفيف جدًّا لا قوام له، حتى إنهما عندما تكوّما على الأرض، لم يشغلا من فراغ الحجرة إلَّا حيّزًا ضئيلًا جدًّا. كانت قد صبغت أظافر يديها وقدميها، بلون أزرق سماوي تعرف أنه يحبّه.

كانت ترتدي ثوبًا خفيفًا من الحرير، يصل من الكتفين إلى ما تحت الركبتين، وله صفّ واحد من الأزرار على الجانب الأيسر، بدأت في فكّها واحدًا واحدًا، من أعلى إلى أسفل. ثم عندما انتهت سحبت الفستان من تحت جسدها، وألقت به على أرض الحجرة إلى جوار الفراش، حيث يوجد الحذاء والجورب. بدت الركبتان لسافير مستديرتين ناعمتين.

(٢)

لمح لابيس الزغب الذهبي، الذي لمع في أشعة الشمس، تحت السروال القصير، من الدانتيللا المخرّمة السوداء، الذي يغطّي منطقة أسفل البطن، وهو من نفس نوع الدانتيللا، التي تغطّي الثديين المتحفّزين بنهايتيهما الورديّتين، بمثلثين من نفس القماش الخفيف. خلع لابيس ملابسه في حركات قصيرة رشيقة، وتمدّد إلى جوارها. استدارت هي نحوه حتى تسهّل عليه عملية احتضانها.

لم يكن يريد أن يبدو متعجّلًا في نظر فولا، لكن من جهة أخرى هناك دائمًا الهاجس القديم، الذي يوسوس الآن وينخر في دماغه،

أن انتصابه لن يدوم. أغلق عينيه محاولًا أن يصل إلى التركيز، اللازم للإبقاء على الانتصاب، وقد ساعده في ذلك، الصوت الذي يدغدغ حواسه، وتصدره فولا بفمها، عند شعورها بالرغبة. هي غمغمات أو همهمات تجعله يدخل في مرحلة الانتشاء.

لمح بعض قطرات العرق اللامعة، وهي تسيل على رقبتها، فتركها حتى وصلت إلى الثدي، ثم بدأ في لحسها بلسانه، فكان لها طعم الخزامي، وهو جنس من النباتات البرّية العطرة. شعرت فولا بأن ملمس لسانه يدغدغ أحاسيسها. أمسك عنقها بقبضة يده، من الخلف عند خط منبت الشعر.

كان فمها نصف مفتوح يلهث من الرغبة، وثدياها يحتكّان بشعر صدره، تتوقّ إلى الولوج بين لحظة وأخرى، عندما تراجع لابيس فجأة، في حركة سريعة إلى الخلف، وانسحب من على جسدها، بل ومن على الفراش كله، ووقف على قدميه ينظر إلى الجهة الأخرى من الحجرة، وهو يرتجفّ.

فولا: ماذا؟ ماذا؟

لابيس: لقد عاد من جديد.

التفتت فولا إلى حيث ينظر، ولم تتمكن من رؤية أي شيء غير عادي.

لابيس: إنه نفس الظلّ القاتم الذي يتحرّك هناك خلف الستائر.

فولا: ليس هناك أي شيء. أرجوك ارحمني.

لابيس: لا يمكنك أن تنكري رؤيته، إنه هناك يتحدّاني، وينظر إليَّ تلك النظرة الشريرة.

بسرعة بحث لابيس عن سرواله الداخلي وأعاد ارتداءه. ثم بحث في جيب بنطاله الملقى على الأرض، عن خنجر قصير بحافة حادة، كان يمتلكه منذ زمن انضمامه إلى فرقة الكشّافة، في المدرسة الثانوية، حتى وجده وأمسك به في يده.

لابيس: سأضع نهاية لهذه التمثيلية.

تجمّدت فولا في مكانها. كان صدرها يعلو ويهبط بمعدّل سريع. قفز لابيس برشاقة حتى أصبح في مواجهة الستائر المعلّقة على نافذة الحجرة. أخذ يطعن الستائر طعنات سريعة متتالية. وهو يصرخ (خُذْ خُذْ).

(٣)

هنا شاهدت فولا فعلًا شيئًا عجيبًا مذهلًا، لم تتخيّل حدوثه أبدًا ولو بنسبة واحد في الألف، واعتقدت للحظة أنها لا تزال نائمة؛ إذ سقطت من خلف الستائر جثّة رجل. انحنى عليها لابيس، واستمر في طعنها بالخنجر، بحركات هيستيرية سريعة، فانبثق منها الدمّ في عدّة مواضع.

مسح لابيس خيوط الدمّ من على خنجره في ملابس القتيل. ثم

سحب الجثّة من مكانها إلى منتصف الحجرة. كانت كل عضلات جسم لابيس في حالة انقباض. رفع يده اليمنى التي طعن الجثّة بها، أمام عينيه ليرى إن كانت ترتجف، فوجدها ثابتة صلبة كالحديد.

كان الجوّ خارج المنزل قد انقلب فجأة إلى عاصفة، ودوّامات هواء في شكل أعمدة، ترفع أوراق الشجر الجافة الصفراء، من على الأرض إلى السماء. أنصت لابيس بانتباه إلى صوت ضلفتي النافذة وهما تتخبّطان.

هذه العاصفة لم تكن تمنع دخول شمس النهار إلى الحجرة، التي كانت مضاءة تمامًا بإمكانيات رؤية عالية، بحيث يمكن بسهولة مشاهدة، تفاصيل لوحة فنية معلّقة على أحد جدران الحجرة، عليها رسم تخطيطي لقطاع رأسي في محرّك طائرة، كان من موضوعات مشروع تخرّج وولف، في مدرسة الفنون والصنائع العليا بباريس.

في هذه اللوحة كان لكل لون مستعمل دلالته، فالأخضر للمواسير التي يمر بها الماء، والأحمر للمواسير التي يمرّ بها الوقود، والأصفر لمواسير الغاز المحروق، والأزرق لمواسير الهواء. وفي مشوار الاحتراق، يؤدّي اختلاط اللونين الأحمر (الوقود) والأزرق (الهواء)، إلى ظهور لون قرمزي جميل، في الحقيقة هو أقرب إلى لون الكبد النيّ، الذي يحب وولف شيّه على النار.

كانت على وجه فولا نظرة إحباط ويأس، فانحنى لابيس عليها ووضع قبلة على وجنتها، ثم انتقل إلى شفتيها. لكنها عندما حاولت

إحاطة رأسه بيديها لمواساته في مأساته، انسحب من جديد بسرعة كبيرة إلى الخلف، فشهقت فولا من الخوف بسبب هذه الحركة العنيفة المباغتة.

وثب لابيس منقضًّا على شبح هلامي آخر، لم يظهر هذه المرّة خلف ستائر النافذة، بل تمامًا في وسط الحجرة، شاهدته فولا أولًا في شكل ظل أسود، يأخذ ملامح الشكل الخارجي (السيلوييت) *silhouette* لجسد رجل. ثم هنا كذلك حدث من جديد، نفس الشيء الغريب السابق حدوثه قبل لحظات، وهو أنه مع كل طعنة خنجر في هذا الجسد المبهم، كانت ملامحه تتضّح أكثر فأكثر.

بعد كل هذه الطعنات القاتلة، إلى ما بين ضلوع القفص الصدري، التي كانت تنتج عنها مع كل طعنة، صرخة حادة من شدّة الألم، صادرة من فم الرجل الشبح، ترنّح هذا الجسد للحظة، ثم سقط على الأرض. نظر لابيس إلى موقع سقوط الجثّة، إلّا أنه هذه المرة لم يجرؤ على لمسها، ونقلها من مكانها، إلى جوار زميلتها في وسط الحجرة. كان لابيس مذهولًا. كانت تتنازعه إلى جوار الذهول، مشاعر الغضب بل والكراهية والاشمئزاز.

(٤)

كانت فولا قد تحرّكت من وضع الرقاد إلى وضع الجلوس على الفراش. في عينيها قلق شديد. تنظر إلى لابيس. ماذا يفعل؟

فولا: القِ بالخنجر على الأرض وتعالَ هنا إلى جواري.

لابيس: لا أعرف بعد إن كانوا فقط اثنين؟ أم أن هناك لا يزال المزيد منهم موجودًا في مكان ما؟

بدا لها صوته مسطّحًا وباردًا جدًّا، كما لو أنه كان قادمًا من معلّق محايد، على حدث ما في إحدى المحطّات الإذاعية، أو كأنه ليس شخصًا واقعيًّا يقف أمامها الآن، بل كأنه يظهر لها في حلم.

فولا: اطمئنّ فأنا لا أرى المزيد منهم.

وولف: أنتِ لم تستطيعي رؤية أيٍ منهما لحين بدأت في الطعن.

ذهب وجلس إلى جوارها. ظلّت نظرته معلّقة على الأرض، حيث الجثّتان.

فولا: اغمض عينيك ولا تفكّر في أي شيء آخر عداي. خذني أرجوك. لديّ رغبة قويّة في أن تأخذني الآن. لم أعد أحتمل المزيد من الحرمان.

وضع لابيس الخنجر الذي كان لا يزال في يده، أسفل وسادة الرأس، ثم نامت هي وزحف هو إلى جوارها. جذبته فوق جسدها، وأحاطت جسده بذراعيها. لم يعد هناك إلّا صوت تنفّسهما المتسارع، على خلفية من صوت الرياح التي تضرب بعنف أوراق الشجر في الحديقة، وبسبب كثافة السحب اختفت الشمس، وتحوّلت السماء إلى اللون الرمادي. كان الجسدان ملتصقين، وذراعا كلّ جسد تحيط بالنصف العلوي من الجسد الآخر. كان الثديان منضغطين تمامًا،

تحت ثقل عضلات الذراعين والجذع.

بدأ لابيس في إصدار صوت أقرب إلى الأنين، وهو لا يزال محتضنًا بقوّة فتاته الذهبية. كان يودّ لو تمكّن من إغلاق جفنيه على عينيه، حتى لا يرى ما يراه الآن؛ إذ فجأةً حدث من جديد نفس الشيء؛ إذ فقد لابيس بسرعة انتصاب عضوه، وفكّ الاشتباك بين الجسدين، وانسحب من فوق فولا، وهو ينظر إلى الستائر عند النافذة. ظهر له نفس الظلّ الداكن اللون لشبح آخر، يقف في نفس المكان خلف الستائر، كأن هذه الظلال تأتي من النافذة.

يبدو الرجل لامباليًا ساكنًا دون أيّ حركة. مدّ لابيس يده إلى الخنجر أسفل مخدّة الرأس، وأمسكه بيده في وضع التصويب نحو الخصم، ثم أطلقه ليرشق في موضع قاتل من عنق الرجل؛ إذ انغرس النصل بالكامل داخل العنق. انهار جسد الرجل ساقطًا على الأرض. اهتزّت الألواح الخشبية التي تغطّي أرضية الحجرة، لحظة ارتطام الجسد بها. اتجه لابيس نحو الجثّة وانحنى عليها، وانتزع الخنجر من العنق بقدر من الخشونة.

عندما اعتدل لابيس بجسده، وعاد إلى الوقوف، لمح ظلًّا جديدًا يقف في نفس المكان. اندفع نحوه بغضب شديد، ليسدّد الخنجر إلى موضع القلب. سقط الرجل على الأرض. في نفس اللحظة ظهر ظلّان جديدان في إطار النافذة، يقف أحدهما خلف الآخر.

(٥)

كانت فولا المذهولة لا تزال جالسة فوق الفراش، تتابع بعينيها وهي مرعوبة كلّ ما يحدث أمامها. هي لا ترى إلّا لابيس وهو يضرب الهواء بخنجره، الممسك به في قبضة يده، لتظهر لها في نفس اللحظة، جثّة تسقط على الأرض، لا تعرف بدقّة من أين أتت. تضع فولا يدها على فمها، بغرض أن تمنع انطلاق صرخات الرعب منه رغمًا عنها.

فجأة وجدت فولا أن لابيس، يوجّه خنجره إلى صدره هو، في موضع القلب. صدرت عن فولا صرخة ملتاعة. سقط لابيس على ركبتيه، ثم مال جسده في حركة بطيئة، إلى أن سقط الجسد كله على الأرض. كانت لا تزال فيه بقايا حياة؛ إذ تمكّن من رفع رأسه، كأنه أراد أن يرى فولا للمرّة الأخيرة.

ليرفع رأسه بهذه الطريقة، اضطرّ إلى أن يضع كفّه على الأرض ليستند عليه. تركت أصابعه وراحة يده، علامات بالدمّ الأحمر على الأرضية الخشبية، كما لو أنه أراد أن يوقّع على وثيقة رسمية، بترك بصمة اليدّ عليها.

أراد أن يقول شيئًا لفولا، لكن صوته خرج متحشرجًا، ولم تفهم منه ما قاله. صدر منه أنين متقطّع، وسقطت من جسده قطرات دماء، لطّخت أرض الحجرة. عندما قامت فولا لتفحص جثّة لابيس، اكتشفت أن بها آثار، كلّ الطعنات التي وجّهها لابيس إلى الجثث

الأخرى. كأنه منذ البداية كان يطعن نفسه.

بدأ جسد فولا كلّه يرتجفّ، من فروة الرأس إلى أطراف أصابع القدمين، كأنها تقف في منطقة القطب الشمالي المتجمّدة. ارتدت ملابسها بطريقة آلية، وهي لا ترفع عينيها عن جثّة لابيس. هنا لاحظت بمزيد من الدهشة، أن ملامح وجوه الجثث المتناثرة في المكان، تتشابه مع ملامح وجه لابيس، كأنّهم نسخ منه. نفس الأنف، نفس الجبهة، نفس خطّ الشعر أعلى الجبهة.

لا يمكن أن نعرف كيف شعرت فولا، بأن روح لابيس تغادر المكان، فسكنت حركاتها للحظة، ثم انفجرت في البكاء. كانت الدموع تملؤ عينيها، فلم تلاحظ أن الجثث المتناثرة على أرضية الحجرة، قد بدأت في التلاشي، كأنها تذوب في الهواء. لم تعد حدودها الخارجية مرئية. كل جثّة أصبحت مثل بقعة من الظلّ غير محدّدة الملامح. ثم اختفت الجثث تمامًا، كأنها لم تكن موجودة.

تجمّدت فولا في مكانها للحظات من شدّة الرعب الذي أصابها، ثم بدأت تتحرّك ببطء نحو باب الحجرة المغلق، الذي عندما وصلت إليه، فتحته بسرعة ثم خرجت منه وأغلقته خلفها بعنف. جرت في الممرّ نحو سلّم الهبوط إلى الطابق الأرضي. كان صوت قطرات المطر المتساقطة فوق قرميد سقف المنزل، يُسْمَع بوضوح في جميع أرجاء المنزل.

امتلأت أنحاء المنزل كلّها فجأة، بوميض ضوء فضّي شديد

السطوع، لتيّار البرق في السماء، تبعه بعد لحظات صوت ارتطام شديد العنف، اهتزّت له جدران المنزل الأربعة. كأن المنزل قد تعرّض لضربة قويّة من قبضة هائلة، كادت أن تنزعه من أساساته. شعرت فولا بدويّ الانفجار الذي أحدث طنينًا في أذنيها.

(٦)

كانت ليل تجلس مسترخية على أحد كراسي صالة الاستقبال، عندما شاهدت الحالة التي عليها فولا.

ليل: لماذا كل هذا الخوف والبكاء من عاصفة رعدية؟

فولا: لابيس مات.

وبدأت تروي لها تفاصيل الساعة الأخيرة، التي شاهدت فيها كل هذه الغرائب. كانت ليل هي الأخرى قد أصابها قدر من الذهول، أدّى إلى تباطؤ واضح في ردود الأفعال.

فولا: يمكنك الصعود إلى الطابق العلوي، لتتأكّدي بنفسك من وجود الجثّة، حيث تركتها على أرض الحجرة، وقد انغرس نصل الخنجر في الصدر، أمّا باقي الجثث فقد اختفت.

تساءلت ليل بينها وبين نفسها، إن كانت فولا قد أصيبت بحالة من الجنون.

فولا: جثث الرجال المرتدين السواد، الذين حاول لابيس قتلهم

جميعًا، إلَّا أنه عندما أدرك أنهم يتكاثرون، أدرك أنهم أقوى منه فقتل نفسه. في البداية اعتقدت أن لابيس يطعن الهواء بحركات يديه العشوائيّتين؛ لأنني لم أكن أرى هؤلاء الرجال إلَّا بعد أن يقتلهم، ويحوّلهم إلى جثث.

ليل: يجب أن نصعد.

فولا: لا أجرؤ على دخول تلك الحجرة مرّة أخرى. كانوا كلهم يشبهونه تمامًا، ثم تبخّروا جميعًا في الهواء.

ليل: قولي لي الحقيقة، هل فشل في علاقته الحميمة معكِ مرّة أخرى فقتل نفسه في لحظة يأس؟

انفجرت فولا في البكاء من جديد.

صعدت ليل السلّم وفولا تتبعها شبه متردّدة. عند وصولهما إلى الطابق العلوي وقفتا متجمّدتين. كانت حجرة وولف وليل في مكانها إلى يمين الممر الأوسط، في حين أن حجرة لابيس وفولا، التي كانت إلى يسار نفس هذا الممر اختفت. في المكان الذي كان من المفروض أن يجدا فيه حجرة لابيس وفولا، لم يعد هناك أي شيء، لا جدران الحجرة، ولا الأثاث الذي كان موجودًا داخلها. لم يعد هناك في موقع الحجرة المختفية، إلَّا سقف المنزل وبعض الأعمدة التي تسنده. كأن الجدران قد طارت أولًا، ثم لحقت بها قطع الأثاث.

ليل: ماذا حدث هنا؟

فولا: يجب أن نغادر هذا المنزل فورًا، لقد سكنته الأرواح الشرّيرة. أنا خائفة.

ليل: الاحتمال الوحيد هو أن تكون الصاعقة القويّة، التي أصابت المنزل منذ لحظات، هي التي أطاحت بهذه الحجرة، لذلك من المحتمل جدًّا أن نجد بقاياها في الحديقة، إلّا إذا كانت الدوّامات الهوائية، قد حملت تلك البقايا، إلى منطقة أخرى بعيدة عن المنزل.

دخلت ليل إلى حجرتها وتبعتها فولا. وجدت ليل كل شيء فيها على حاله. مشت بضع خطوات إلى نافذة الحجرة المطلّة على الحديقة، لتنظر منها إلى الحديقة، لعلّها تعثر فيها على بقايا حجرة لابيس، إلّا أنها لم تجد في الحديقة أي شيء. الملاحظة الوحيدة هي أن عشب الحديقة، الذي كان أخضر اللون حتى هذا الصباح، تحوّل كله إلى اللون الأحمر. قالت في نفسها إن وولف كان يعتقد دائمًا أن هذا العشب الأحمر هو فأل سيئ، قد يكون مرتبطًا بقوى شيطانية تعيث فسادًا في الأماكن. إذن لماذا لا تكون فولا محقّة، في اعتقادها أن هذا المنزل أصبح مسكونًا بالأرواح الشريرة؟

(٧)

فولا: لا أعرف ماذا أقول لكِ غير أنني كنت أشعر بأن هذه ستكون هي النهاية المتوقّعة، ففي كل مرّة كان يقترب منّي، ليحتضنني ويقبّلني تمهيدًا لممارسة الحبّ، كان يبدو متردّدًا، كما لو كان يخشى شيئًا، أو كأنه ليست لديه ثقة كافية في رجولته! رغم أنني كنت دائمًا أُظْهِر له الترحيب والتشجيع. الآن أعتقد أن تلك المسألة المتعلّقة بظهور

أشباح لا يراها إلّا هو، والشلل الذي يصيبه بعد مثل هذا الظهور، لم يكن إلّا حجّة لتبرير إهماله لي تمهيدًا للانفصال.

ليل: لم يعد هناك رجال جادون.

فولا: لم يعد هناك إلّا الرجال الخائفون الهاربون، الذين يعتقدون أنهم نماذج للرجولة المجسّمة، طالما ارتدوا أحدث صيحات الملابس، ووضعوا أقدامهم داخل الجوارب الحريرية الوردية اللون، وتعلّموا أحدث الرقصات، وقادوا سيّارات أمريكية طولها لا يقلّ عن خمسة أمتار، ثم اشتروا لنا المجوهرات، ودفعوا لنا مرتّبات الخادمات.

ليل: أنا أفضّل اللون الأخضر الفستقي على اللون الوردي.

فولا: كما تشائين.

ليل: رأيي أن نعدّ حقائبنا ونغادر هذا المنزل بلا رجعة.

فولا: أتمنى أن يقع رجل ثري في حبّي، على أن يكون مزدوج الميول الجنسية، حتى ينشغل عنّي بعشّاقه، ويترك لي حرّية الحركة والعيش في سلام.

ملأت الفتاتان معًا حقيبتين كبيرتين بالملابس، ولكنهما بسبب ثقل وزن الحقيبتين، تركتاهما وغادرتا المنزل دونهما. كان العشب الأحمر قد غزا تمامًا، كل المنطقة المحيطة بالمنزل، ولم يعد هناك أي عشب أخضر، إلّا على بعد مئات الأمتار. كان وولف يكرّر أمامهما إن العشب الأخضر عندما يتحوّل إلى اللون الأحمر، فإن هذا يعني أن هذا العشب في طريقه إلى الفناء.

الفصل الثالث عشر

مخاتلة الأيّام الخوالي

ثلاث قصص قصيرة ملحقة بالرواية في كل طبعاتها

القصّة الأولى

الذكريـــات

مهداة إلى ديوك إيلينجتون موسيقي الجاز الشهير

(١)

عَبَرَ الشارع الواحد والثلاثين. مرّ أمام مجموعتين من المباني ثم أمام المتجر الأحمر. ليصل إلى مدخل مبنى الإمباير ستات وهو أعلى ناطحات سحاب نيويورك في ذلك الحين. ثم إلى الباب الجانبي للمبنى المؤدّي إلى الطابق الأرضي. أخذ المصعد الكهربائي المباشر إلى الطابق العاشر بعد المائة. عندما وصل إليه أكمل الصعود باستعمال درجات السلّم المعدني، المحيط بالبناء من خارجه، إلى قمّة البناء.

كان طوال ذلك الوقت مشغولًا بالتفكير؛ إذ كان عليه عندما يقفز، أن يضع في اعتباره، أن تكون قفزته، إلى أبعد حدّ ممكن عن البناية الشاهقة، حتى لا تعيده تيّارات الهواء القوية إلى إحدى شرفات

الطوابق. من ناحية أخرى لم يكن يريد أن يكون بعيدًا جدًّا، بحيث لا يتمكّن أثناء سقوطه السريع، من مشاهدة ما يحدث داخل الشقق والحجرات، عبر النوافذ الواسعة المفتوحة، فهذا غالبًا سيكون مسلّيًا جدًّا، خاصة عند الاقتراب من الطابق الثمانين.

أخذ من جيبه علبة سجائره، وأفرغها من السجائر التي وضعها في جيبه. قذف بالعلبة الفارغة في الهواء من هذا الارتفاع ليدرس اتجاهات الرياح. سحبت تيّارات الهواء العلبة مباشرة نحو الأرض بمحاذاة جدران المبنى، دون أن تلعب بها في اتجاهات أخرى متداخلة. بذلك تأكّد أن جسده، الأكثر ثقلًا بمراحل من علبة السجائر، سيسقط هو الآخر بشكل عمودي رأسي، باتجاه الأرض، وأن تيّارات الهواء لن تتلاعب به، عند هذا الحدّ قفز.

صفّر الهواء في أذنيه مما ذكّره بالمقهى في لونج آيلاند، الذي يشغل الطابق الأرضي من المنزل المبني بطراز منازل فيرجينيا، حيث جلس يحتسي زجاجة كوكاكولا مع (ويني)، في اللحظة التي دخل فيها المقهى، أحد إخوتها غير الأشقاء من أبناء (سارويان)، بملابس خفيفة تتناسب مع سنّه الصغير وجسده الرياضي. عندما جلس أمامهما بدا شعره الخفيف كما لو كان من القشّ الخفيف المتقصّف. طلب كوبًا من الچيلاتي الذي تعلوه طبقة من قشدة الحليب. كان سارويان من أصول أرمينية، كما يبدو واضحًا من اسمه، الذي ينتهي مثل غيره من الأسماء الأرمينية بالياء والألف والنون.

اقترب الطابق الثمانون، لذلك فتح عينيه على اتساعهما. كل النوافذ مفتوحة في هذا اليوم الصيفي الحار. الشمس التي لم تغرب بعد تسقط أشعّتها بطريقة شبه أفقية، على دواخل كل الشقق، بحيث تسهل رؤية محتوياتها. كانت كلّ قطع الأثاث تبرق تحت وقع أشعّة الشمس. الحقائب مفتوحة يمكن رؤية ما بها من ملابس داخلية. الدواليب مفتوحة يمكن رؤية ما بها من أغطية فراش.

في هذا الوقت من الموسم الصيفي، يغادر أغلب سكّان نيويورك شققهم، للذهاب إلى الشواطئ. تذكّر ويني في لباس البحر الأسود، وهي تقضم بأسنانها ثمرة من الليمون الحلو. عندما اقترب من الشاطئ قارب فاخر بشراع أبيض، حجب للحظة عنهما قرص الشمس. لفت انتباه الجميع إلى لمعان لون شراعه الأبيض تحت ضوء أشعّة شمس الغروب.

أمكنهما حيث جلسا، الإنصات إلى بداية عزف الفرقة الموسيقية، القادم من مسرح الهواء الطلق في الفندق القريب. لم تكن ويني تريد أن ترقص، ولا حتى أن تترك مكانها على الشاطئ الرملي بلباس البحر. الهدف هو الحصول على أكبر قدر من اللون البرونزي، لأكبر مساحة ممكنة من جسدها. لاحظ لمعان ظهرها بفضل زيوت مستحضرات التجميل. كم أحبّ مراقبة رشاقة ساقيها وفخذيها، وكتفيها كاملي الاستدارة.

فكّر كذلك في الملمس الذي كان لشعرها الناعم بين أصابع يديه.

كانت ويني تستمتع بشكل خاص، بدعك وفرك عنقها بين يديه، عند خطّ منبت الشعر. كانت تجد هذا مثيرًا جنسيًّا. قالت إن هذا الدعك يجعلها تشعر بانقباض خفيف في منطقة ما بين الفخذين.

(٢)

عند الطابق السبعين استمعتُ إلى حوارات مبهمة، قادمة من نوافذ شقق مختلفة، لأشخاص يجلسون على مقاعد جلدية، ويدخّنون السجائر والسيجار، بحيث وصلتني روائحها من أصناف التبغ المختلفة، أثناء مروري السريع. كنت أشمّ نفس هذه الروائح في مكتب والد ويني، الذي كان ثرثارًا إلى درجة لا تطاق، لأنه عندما يتكلّم لا يترك أيّ فرصة لأي شخص، أن ينطق أمامه كلمة واحدة؛ إذ يحتكر وحده كل الحوارات.

أما أخوها الشقيق فلم يكن من نوع الفتيان، الذين يصطحبون الفتيات طول الوقت، إلى الشواطئ نهارًا، والى المراقص ليلًا، بل كان غالبًا من النوع المتديّن المحافظ على الأخلاقيّات، الذي يكرّس وقت فراغه من المذاكرة أو العمل، لأنشطة الجمعيّات الدينية مثل جمعية صغار الرجال المسيحيين (الواي إم سي إيه) *YMCA*، وسيلتحق بالجامعة لدراسة الهندسة الميكانيكية، ويعمل لاحقًا في تخصّص خراطة المعادن اللازمة لتركيب الآلات داخل ورش المصانع.

إلا أن والد ويني لم يهتمّ بتربية وتعليم ابنته، بنفس قدر اهتمامه

بتربية وتعليم ابنه، بل تركها في يد أمها، التي كانت لا تزال شابة صغيرة طائشة، ولم تعرف ماذا تفعل بها، فتركتها في المدارس دون رقابة، فبدأت في الخروج ليلًا مع شبّان مختلفين للذهاب إلى المراقص والحانات. ويني أصبحت بالتالي قادرة على التمييز، بين الشاب الجاد والشاب العابث، مما أفادها لاحقًا في طريقة اختيار شريك حياتها. في ذلك الوقت من فترة ما بين الحربين العالميتين، لم نكن نسمع أبدًا عن فتيات يدرسن الطبّ أو الهندسة.

ورغم خروج الشباب من الجنسين في ذلك الوقت إلى الحانات والمراقص، إلّا أن المجتمع الأمريكي استمرّ مجتمعًا متحفّظًا ومتديّنًا، إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، بحيث إنه كان من النادر أن تصل العلاقة بين شاب وفتاة إلى الفراش، كما كان معتادًا أن يحدث، في هذا النوع من العلاقات في أوروبا، لدرجة أنه صدر قانون في أمريكا، بعد تدخّل الكنيسة، لتجريم الشباب الذي يمارس العلاقة الجنسية خارج إطار الزوجية. ولكن حيث إن حديثي هذا يوجّه إلى أناس لا أعرفهم، ولا أعرف معتقداتهم الدينية، فسأتوقّف هنا عند هذا الحدّ.

كان والد ويني طوال فترة حديثه معي، يضع سيجاره على حافة منفضة سجائر، التي تصاعد منها خطّ دخّان رأسي، بدأ في الانكسار ذات اليمين وذات اليسار، مع تيّارات هوائيّة، خفيفة وغير مرئيّة، متخذًا بذلك بعض الأشكال الغريبة. ثم أتت ويني لتجلس على ذراع كرسي والدها، وتطوّق عنقه بذراعها. إلّا أن تطويق العنق هذا استمرّ فترة طويلة، وتحوّل إلى محاولة للخنق، بدليل ازرقاق لون وجه الرجل،

وميل عنقه إلى الخلف. هنا هربت من المكان خوفًا من توجيه تهمة القتل إلى شخصي الضعيف، لأحلّ في المشنقة محلّ ابنته، لأن أحدًا ما كان ليصدّق أن من قتلته هي ابنته الحبيبة المدلّلة.

(٣)

هأنذا أصل الآن إلى مستوى الطابق الستّين. حيث لفتت انتباهي حجرة مخصّصة لطفل لا يزال يحبو، أثاثها بلون الفانيليا، وملاءات فراشها بلون وردي. كان الطفل يبكي لسبب غير واضح، لذلك جاءت أمه لتوبّخه، لكنه بمجرّد سماعه صوت أقدامها، جرى على أطرافه الأربعة، ليختبئ داخل دولاب ملابس كانت ضلفته مفتوحة.

وجد الطفل داخل الدولاب، علبة معدنية بها قوالب من الشوكولاتة التي يحبّها، وكان على ظهر العلبة بعض الرسومات الملوّنة البارزة، لخنزير بلون أصفر، يعزف نافخًا في مزمار. كان الطفل دائم النظر إلى أعلى، وهو يختبئ في دولاب الملابس، خوفًا من أن تسقط عليه ملابس الشتاء الثقيلة، التي علّقتها أمّه في هذا الدولاب. هذا هو كلّ ما استطعت أن ألمحه أثناء أجزاء الثانية التي استغرقتها لحظة مروري بهذا الطابق.

أحد أثواب الأم المعلّقة عاد إلى تذكيري بويني، إذ إنها ارتدت ذات ليلة ثوبًا قريب الشبه جدًّا من ذلك الذي رأيته للتوّ، عندما خرجنا للسهر معًا في أحد الملاهي الليلية. في الحقيقة أتذكّر أنني في تلك

الليلة، شعرت بقدر من الضيق من تصرّفها هذا؛ لأن الثوب كان فاضحًا. أولًا كان ضيّقًا جدًّا يُظْهِر كل تفاصيل الجسد ويجسّمها. ثانيًا كان مفتوحًا من الجانبين من مستوى أعلى الفخذين إلى مستوى كعبي القدمين.

أنا لا أرتاح لمن تستعرض جسدها هكذا على الملأ. خاصة أننا عند الرقص، كان الثوب يكشف عن جانبي جسدها، فكان الرجال يلاحقونها بأبصارهم. أقرّ بأن أساليب ويني في الإغواء لا تقاوم. كنت كلما تركتها على أحد المقاعد، وذهبت إلى الساقي لأحضر لنا كأسين، عدت لأجد أحد الرجال وقد انحنى عليها، داعيًا إيّاها للرقص معه.

لا أعرف لماذا كانت هذه الذكرى، تعاودني في أحلامي في السنوات اللاحقة، مع تغيير طفيف، وهو أنني كنت كلما عدت إليها حاملًا كأسين، أجد نفسي وقد فقدت سروالي، ووقفت أمامها في حالة نصف العري تلك، وقد انفجر الجميع رجالًا ونساءً في الضحك سخرية مني. في الحلم (الكابوس) أجد نفسي أحاول الاختفاء عن أنظار الناس، بالبحث عن فتحة داخل الجدار، أمرّ منها إلى مكان انتظار السيّارات، فآخذ سيّارتي وأهرب.

(٤)

في الطابق الخمسين رأيت منظرًا مثيرًا جنسيًّا (إيروتيكيًّا)، ويني ترتدي بذلة رجالية، وتقصّ شعر رأسها بحيث أصبح قصيرًا جدًّا مثل قصّة شعر الرجال (آلا جارسون)، وقد وقفت إلى جوارها في النافذة، امرأة ذات شعر أسود فاحم، وأظافر يدين مخضّبة باللون الأحمر. أمسكت ويني بيديها ثديي المرأة الواقفة إلى جوارها. كنت أعرف أنها مزدوجة الميول الجنسية. كانت ويني ذات قوام أميل إلى النحافة، حتى أنني كنت أرى بوضوح ضلوع قفصها الصدري، عندما تكون مرتدية ثوب السباحة. رغم صغر حجمهما إلّا أنهما كانا ثمرتين كثيفتي اللبّ. لا أستطيع أن أعثر على ثمار فاكهة، يمكن أن أقارنها بثديي ويني، بحلمتيهما المتوثّبتين المنتصبتين، في تحفّز واضح للقتال. كانا يسعدان بالمداعبة باليد كما لو كانا حيوانين صغيرين مرحين.

أنا الآن في مواجهة نوافذ الطابق الأربعين، أقترب حثيثًا من مصيري المحتوم. قطعت ثلثي الطريق إلى القاع. هنا رأيت رجلين يقفان في حجرة، بها مكتب وأرفف كتب عليها ملفّات. هناك رجل ثالث يجلس على كرسي ويعطيني ظهره. الثلاثة يرتدون زيًّا موحّدًا. سترة وسروال من نسيج صوفي متين، باللون الأزرق الداكن كلون زرقة مياه البحر، وقمصان موحّدة بيضاء اللون. كانوا بأجسام رياضية ضخمة، وبأكتاف عريضة ونظرات لا مبالية. في نافذة أخرى بنفس

الطابق كان هناك رجلان بنفس الزيّ الموحّد، بالإضافة إلى قبّعة سوداء من اللبّاد فوق رأسيهما.

شاهدت نفسي في حمّام شقّتي بالطابق الأربعين، وأنا أتمدّد عاريًا في حوض الاستحمام، وقد غمرتني المياه الساخنة برغوة الصابون، واضعًا في متناول يدي كعادتي، فوق مائدة خشبية صغيرة منخفضة، زجاجة خمر نصف ملآنة، إلى جوارها كأس نصف ملآن. وإذا بالرجلين صاحبي القبّعتين من اللبّاد الأسود، يطرقان باب شقتي، فتنقلب محتويات الكأس من يدي، على سطح المائدة الخشبية الصغيرة. من هما؟ وماذا يريدان؟ أصابني اضطراب شديد، فلا أحد باستثناء ويني، يعلم أنني هنا. وقفت حافيًا بمنشفة كبيرة حول جسدي، خلف الباب لا أعرف هل أفتحه أم أنكر وجودي؟ إذا طالت وقفتهما دون جدوى أمام الباب، قد ييأسان ويغادران المكان.

إذا دخل أي شخص في شقّتي، فسيدرك على الفور قدر هيامي بويني، فكل جدران الحجرات عليها صورها بالأبيض والأسود، في كل المواقف التي عشناها معًا. كما أن هناك صورة فوتوغرافية كبيرة بضعف الحجم الطبيعي لوجهها (بورتريه)، تشغل حيّزًا لا بأس به من مساحة الجدار خلف المذياع. كان التلفزيون لا يزال اختراعًا حديثًا، لم يجد بعد مكانه في كل بيت في أمريكا. في الصورة البورتريه أطلقت ويني شعرها المجنون على كتفيها.

هي هنا تظهر كما لو كانت نجمة سينمائية في لقطة من فيلم، لأحد

أهم أدوارها. عيناها باسمتان، وشفتاها ممتلئتان ناعمتان. كانت تخرج لسانها كأنها تبلّل به شفتيها. كانت قد اعتادت على صبغهما بلون أحمر داكن. من المؤكّد أن كلّ الرجال الذين قبّلوا هاتين الشفتين، قد تردّدوا قبل الإقدام على هذه الفِعلة، بسبب شعورهم ببعض الأحاسيس المتضاربة، خوفًا من الاساءة إلى هذا الجمال المطلق لشفتين لا مثيل لهما. لذلك كانت قبلات الرجال على الشفتين خفيفة وسريعة.

(٥)

من خلال نافذة في الطابق الثلاثين، شاهدت تمثالًا صغيرًا من الجصّ الأبيض، لحصان صغير يقف بقوائمه الأربعة على قاعدة مربّعة، من نفس مادة الجصّ هي الأخرى. هذا الحصان جلب إلى الذاكرة صورة حصان آخر أبيض، هو ذلك المرسوم على زجاجة الويسكي الأمريكية المعروفة باسم بول جونز *Paul Jones*. هل أحتسي نصف هذه الزجاجة في جرعة واحدة، لأكتسب الشجاعة اللازمة للعودة إلى الطابق الأربعين، ومواجهة الرجلين اللذين يطرقان الباب؟

ربّما هما من رجال الشرطة السرّية، وقد جاءا لا للبحث عنّي، بل عن الخادمة السوداء، التي تتولى تنظيف شقّتي مرّة واحدة في الأسبوع. ربّما هي تعمل في شقّة أخرى، بنفس ناطحة السحاب الإمباير ستات، سرقت منها شيئًا ما؟ هل يكفي أن يكون الإنسان أسود البشرة، حتى يكون طول الوقت في أمريكا، متّهمًا بارتكاب جرائم لم يرتكبها؟ ربّما

هي تختبئ فعلًا في شقّتي دون أن أدري؟ أنا أترك معها مفتاح الشقّة حتى تتمكن من الدخول فيها، حتى لو كنت نائمًا أو غائبًا. قد أفقد ثقتي فيها وأستردّ منها مفتاح شقّتي. ليتني مددت يدي من النافذة، أثناء مروري بالطابق الثلاثين، وحصلت على زجاجة الحصان الأبيض، التي أحتاج الآن إلى كلّ قطرة فيها.

أنا كنت عادة أحتسي نصف زجاجة خمر، لتهدئة أعصابي المنفلتة، قبل موعد لقاء ويني. كنا نلتقي في شقّتي هنا بالطابق الأربعين، في مواعيد أسبوعية محدّدة، لكنها كانت تأتي دائمًا متأخّرة ساعة أو ساعتين، وتجعلني أنتظر قلقًا وخوفًا من ألا تأتي. وفي أحيان كثيرة كان اضطرابي هو بسبب التمنّع الذي كانت تبديه، وتريد منّي به أن أكتفي بالقبلات والمداعبات، وتجعلني أشكّ به في احتمال وجود علاقة لها برجل آخر. رجل تمكّن هو الآخر مثلي من إدراك أسرار مفاتيح شخصيتها. أم أن التمنّع هو بهدف جعلي أُقْدِم على الزواج منها؟ هل كان والداها سيوافقان على هذا الزواج رغم ثرائهما الفاحش؟

ربّما لو كنا تزوّجنا لوقعت ضحية اتهامي بجريمة لم أرتكبها، كأن يُقْتَل والدها في ظروف غامضة، وأكون أنا المشتبه فيه رقم واحد، حتى تحصل زوجتي وابنته، على نصيبها من تركته، وتَرِث تلك الثروة الطائلة. أنا غير متأكّد في الحقيقة من شخصية القاتل. قد تكون هي فعلًا ابنته. قد يكون السبب في موته هو الاختناق بدخّان السيجار في غرفة مغلقة دون تهوية. ربّما كان الرجلان المحقّقان اللذان يطرقان

بابي الآن هما من قتلاه، بعد أن احتسيا معًا نصف زجاجة ويسكي الحصان الأبيض.

عند الطابق العشرين نسيت أن أفتح عينيّ لذلك لم أرَ شيئا. إلّا أنني عند الطابق السابع عشر، توقّفت في الهواء لحظات، حتى أصلح هندامي المبعثر بسبب تيّارات الهواء، طوال رحلة السقوط على مسافة ٣٠٠ متر. دخلت من إحدى النوافذ.

(٦)

كان هناك برنامج منوّعات موسيقية في المذياع المنخفض الصوت، لكن هذا لم يمنعني من تمييز صوت المغنية الأمريكية المشهورة (دينا شور)، الأشهر على الإطلاق خلال الثلاثينيات، التي تنجح دائمًا في استعادة الألحان القديمة، والعمل على إحياء شعبيتها. فجأة انفتح الباب، ودخلت منه فتاة صغيرة، لم تظهر على وجهها أيّ علامة اندهاش من وجودي. كانت ترتدي منامة عبارة عن قميص وسروال من الصوف أصفر اللون. تضع فوق المنامة الرداء المناسب، من نفس الصوف وبنفس اللون، بأكمام طويلة وبصفّ أزرار أمامي في منتصف الرداء. هذه الأزرار لم تكن مغلقة إلّا حول الرقبة. كان وجهها شاحبًا وليست من بين من يمكن وصفهنّ بالجمال، على الأقل من وجهة نظري أنا الشخصية. لكنها على الأقل كانت ذات جسد ممشوق القوام.

جلسَتْ إلى المائدة ثم سكبَتْ لنفسها كوبًا من القهوة باللبن، وأكلَتْ معها قطعة من الحلوى. كنت أجلس على مقعد فدعتني إلى الانضمام إليها على المائدة، واقترحَتْ قدحًا من القهوة وقطعة حلوى فوافقْتُ. عندما جلست أمامها أعطتني قدحًا من الفخّار الصيني. كانت الحلوى شوكولاتة بالزبيب.

هي: من أين جئت؟

أنا (أشير إلى النافذة): من الما وراء.

أشعلَتْ سيجارة وبدأَتْ في تدخينها. كانت بشرتها صفراء مثل ملابسها، فقلت في نفسي غالبًا هي مريضة. حتى لون العينين بدا أقرب إلى الاصفرار. أدركت في لحظة تالية أن عينيها، أقرب إلى عيون الآسيويّين بزوايا جانبية ضيّقة. ازداد إعجابي بقوامها وقلت في نفسي إنها تشبه فتيات فارجاس *Vargas*، وهو رسّام من بيرو، تخصّص في رسم الفتيات الرشيقات الجميلات المغويات، بأثداء منتصبة، وأرداف مستديرة، وسيقان رشيقة. كان يرسمهنّ بملابس خفيفة، تظهر أكثر مما تخفي. واشتهر جدًّا في العالم الغربي خلال فترة ما بعد الحرب الثانية.

هي: ألم ترهقك تلك المسافة الطويلة التي قطعتها حتى وصلت إلى هنا؟

أنا: في الحقيقة لقد تسلّيت بمشاهدة أشياء كثيرة ممتعة في الطريق.

هي: ماذا تقصد بقولك أشياء؟

أنا: أقصد ما رأيته في الحجرات من خلال النوافذ المفتوحة، وهو ما أثار في ذهني الكثير من الذكريات.

هي: بسبب الجوّ الحار أغلب النوافذ مفتوحة.

أنا: لم أتمكن إلَّا من مشاهدة النوافذ كل عشرة طوابق، أي في الطوابق أرقام ٨٠ و٦٠ و٤٠ و٢٠. أي إنني لم أشاهد إلَّا ما هو أقلّ من ١٠٪ من الطوابق. حتى إنني في الطابق العشرين كانت عيناي مغلقتين فلم أتمكن من مشاهدة أيّ شيء.

هي: في الطابق العشرين يسكن قسّ شاب ضخم الجسم، حريٌّ به أن يعمل مصارعًا محترفًا، رغم أنه أحد رعاة الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية.

أنا: كيف تعرفين كل هذا عنه؟

سكتت دقائق، وهي تلعب بأصابعها ذات الأظافر المصبوغة بلون ذهبي، في الحلية التي تعلّقها حول عنقها، قبل أن تجيب.

هي: لو كانت عيناك مفتوحتين عند الطابق العشرين، لرأيتّ عبر نوافذه صليبًا كبيرًا مصنوعًا من لوحين خشبيين متقاطعين داكني اللون، معلّقًا على الحائط الرئيس في مواجهة النوافذ. وفوق مكتبه هناك نسخة من الكتاب المقدّس، بحجم ضخم لم أرَ له مثيلًا في حياتي.

(٧)

عند الاحتفال بأعياد الميلاد (الكريسماس) ورأس السنة، دعاها جدّاها للاحتفال معهما في منزلهما الريفي، الذي لا يبعد كثيرًا عن مدينة نيويورك. ذهبنا معًا أنا وهي في سيّارتها، التي وضعناها إلى جوار سيّارة الجدّ، في الموقف الخاص بالسيّارات أمام القصر الريفي. كانت سيّارة الجدّ قديمة، لكنها من طراز يعتبر من أفخر أنواع السيّارات في العالم. وقف إلى جوار سيّارة الجدّ من الناحية الأخرى، جرّاران زراعيّان من النوع ذي الجنازير الجانبية، التي علقت بها أجزاء من التربة البنيّة اللون الصلبة الجافة، وهي التربة التي تمّ حرثها بهما. في مثل تلك المناسبات الاحتفالية، كانت الجدّة تعدّ لضيوفها بيديها، فطائر الحلويّات من دقيق الذرة، بالإضافة طبعًا إلى كل أنواع العجائن الأخرى، التي تضع فيها حشوًا من اللحوم والخضراوات وأنواع التوابل.

هي: ربّما أثناء مرورك العابر بالطابق العشرين، أمكنك أن تسمع ترانيم جوقة الإنشاد، التي يشرف عليها القسّ.

أنا: لقد حدث هذا فعلًا، فرغم غلق عيني إلّا أن أذني كانتا مفتوحتين. ثم إنها قطعة موسيقية مشهورة.

حاولت أن أغنّيها بصوتي.

هي: غالبًا إننا لم نعد نرحّب بالقساوسة في بيوتنا، إلّا خلال لحظات قبل موت أحد الأقارب. بالمناسبة ألم تكن في نيّتك الموت، وأنت تقذف بنفسك من هذا الارتفاع الشاهق؟

أنا: حتى لو كانت هذه هي فعلًا نيّتي، فأنا لا أفكر أبدًا في الاستعانة بقسّ، تحت أي ظروف أو في أي ملابسات. فأنا أكرههم كلهم.

هي: أتفق معك تمامًا في لا جدوى وعبثيّة كل هذه الكنائس، بكل من فيها من قساوسة لا فائدة ترجى منهم.

فكّرت في أن المسيحية تدين الإنسان المنتحر، على أساس أنه يعترض على إرادة الربّ الذي وهبه الحياة، وهو بالتالي (أي الربّ) الوحيد صاحب الحقّ في أن يسترد من الإنسان هذه الهبة. إلّا أنني أعتقد أن المسألة هي، أن الربّ يحب المطيعين له، الذين يخشون الموت، ويخشون بالتالي مواجهته، أما المنتحرون فهم يعلنون تحدّيهم له، ولذلك هو يكرههم. مسألة شخصية بحتة. هو لا يريدك أن تتحدّاه، ولا حتى أن تعارضه.

* * *

القصّة الثانية

رجـال المطافئ

مهداة إلى ابني باتريك وهو في السادسة من عمره

(١)

لإشعال عود الثقاب حكّه باتريك على جدار حائط غرفة الاستقبال في شقّة والديه، إلّا أنه لم ينجح في إشعاله. كان الجدار مخدوشًا في مواضع عديدة، على ما يبدو لنفس السبب. في سادس محاولة ذهابًا وإيابًا بالعود على الحائط انكسر العود.

عند هذا الحدّ توقّف باتريك عن المحاولة. إذ كان الجزء المتبقّي من العود جهة المادة الكبريتية قصيرًا جدًّا، بحيث إنه إذا استمر في المحاولة سيعرّض نفسه لخطر حرق أصابعه بالنار.

انشغل باتريك بالغناء وذهب في اتجاه مطبخ الشقّة، حيث كان والداه يحتفظان بعلب أعواد الثقاب التقليدية، التي توفر على جانبيها

مادة الاحتكاك اللازمة للإشعال، في أحد أدراج المطبخ، القريبة من الفرن الذي يشتعل بالغاز.

لم يكن باتريك قد وصل بعد إلى السنّ، الذي يسمح له فيه بالاحتجاج العلني الصريح، على أفعال والديه. لكنه خلال عامه الأول في المدرسة الابتدائية، كان قد تعلّم بعض الأغنيات الدينية، التي كان والداه يكرهان الاستماع إليها.

أدرك باتريك منذ سنّ مبكّر، أن والديه لا يحبّان التردّد على الكنائس، ولا حتى يحتملان مجرّد الذهاب إليها ولا مرّة واحدة في السنة، لحضور صلاة الجنازة على أحد الأقارب المتوفّين.

أدرك باتريك منذ سن مبكّر، حقيقة مشاعر والديه نحو الكنائس المسيحية، ونحو الأغنيّات الدينية المسيحية، لذلك كان غناؤه لهذه الأغنيّات هي وسيلته للاحتجاج عليهما.

إن أطفال هذا الجيل يسبقون أعمارهم. كأن غناء باتريك كان نوعًا من الإدانة الأخلاقية لوالديه. وقف باتريك على أطراف أصابع قدميه، ليصل إلى الدرج حيث علب الكبريت، وأخذ منها علبة، عاد بها إلى غرفة الاستقبال.

(٢)

عندما انتبهت إلى ما يحدث، كانت النيران قد أمسكت بستائر غرفة الاستقبال، التي كانت تحترق بوهج شديد. لكنها كانت بعيدة عن قطع الأثاث، التي لم يكن هناك لذلك خطر عليها، كما أنه لم تكن هناك رياح يمكنها أن تنشر النار، بالإضافة إلى أن أطر النافذة لم تكن خشبية، بل حديدية.

لذلك وقفت أراقب هذه النار وهي تأكل القماش. لكني لم أفهم الدافع وراء فعلته. بدا على وجهي الانزعاج، فأدرك الصغير فداحة ما يحدث. أدرك أن النيران ليست مزحة. تحوّلت عيناه من النظر إلى وجهي، إلى النظر في الأرض، هربًا من مواجهة نظراتي. ثم بدأ في البكاء.

أنا: أنت فعلت هذا بدافع التسلية أو المزاح، فلا تبكِ لأن بكاءك يجعلني أظنّ أنك قد أدركت خطأك.

هو (مستمرًّا في البكاء): أردت فقط إشعال عود ثقاب واحد ومعرفة مدى التلف الذي يمكن أن يحدثه.

أردت التقليل من الأثر الكارثي لفعلته.

أنا: في الحقيقة لقد فعلت أنا، نفس الشيء في منزل والديّ،

عندما كنت في مثل سنّك. هذا هو العجيب في الموضوع، كأنه مسألة وراثية تتناقلها الجينات.

هو: هل ستلعب معي بالسيّارات الصغيرة لتثبت لي أنك لست غاضبًا مني؟

أنا: نعم، تعال خلفي إلى غرفة مائدة الطعام، لنبدأ اللعب وننسى ما حدث.

هو: أنت لم تلعب معي منذ ثلاثة أيام.

أنا: لديَّ مشاغل عديدة لكسب لقمة العيش.

هو: ليس هذا ما يمنع أب من اللعب مع ابنه الوحيد.

تساءلت أين تعلَّم الجدل بهذا المنطق؟

هو: أنا مثلًا مهما كانت واجباتي المدرسية ثقيلة، فأنا لا أمتنع أبدًا عن اللعب معك بالسيّارات الصغيرة.

انقلبت الآية. تمكّن العفريت من قلب الوضع.

(٣)

بعد مرور ساعة من اللعب بالسيّارات قرّرت أن أعود إلى غرفة الاستقبال، لمعرفة مدى التلف الذي أحدثته النيران. فوجئت باستمرار كثافة الدخّان الأسود، حتى أنني لم أتمكن من رؤية أي شيء.

فوجئت باحتراق طلاء الجدران. لم أكن أدرك أن مادة الطلاء كيميائية قابلة للاشتعال. حاولت أن أعرف أيّ الرائحتين أشدّ من الأخرى، رائحة احتراق نسيج أقمشة الستائر، أم رائحة احتراق زيوت أدهنة الحوائط؟

بدأت أشعر بالاختناق، وأدركت أن ألسنة اللهب قد امتدت إلى ألواح خشب الأرضية، التي خشيت عليها من الانهيار. خرجت من الغرفة وأغلقت بابها خلفي. كان باتريك يقف مترقّبًا، فقلت له إنه لا غنى لنا عن الاتصال برجال المطافئ.

أنا: آلو، المطافئ؟

هم: نعم، ما الأمر؟

أنا: لديَّ حريق في شقّتي.

هم: ما العنوان؟

أجبت بالتفصيل الممل عن خطوط الطول والعرض، وعن مستوى الارتفاع فوق سطح البحر لموقع وموضع الشقّة.

هم: هل تريد أن نحدّد لك موعدًا؟

أنا: كيف هذا؟ إنها حالة طوارئ مستعجلة، ويجب أن تأتوا على الفور. المفروض أن تحضروا بأسرع ما يمكنكم.

هم: كل الناس يقولون نفس الشيء. ومن المستحيل أن نحضر الآن، ففي جداولنا قوائم انتظار طويلة، ولدينا طلبات عديدة تسبقك في الدور.

(صمت وذهول).

هم: الموعد الوحيد الخالي في جداول مواعيدنا، هو بعد غد الساعة الثالثة بعد الظهر. هذا هو أفضل ما يمكن أن أعدك به.

أنا: إذن سأنتظركم بفروغ صبر. لعلّكم لا تنسون الميعاد.

هم: بشرط وحيد وهو أن تظلّ النيران مشتعلة، لأننا لو حضرنا ووجدناك قد أطفأتها، فسنعتبر كلامك هذا بلاغًا كاذبًا، عقوبته شديدة في قانون العقوبات.

* * *

القصّة الثالثة

المتقاعد

(١)

عند خروجنا من المدرسة، كان تلاميذ القسم الابتدائي يمرّون بممر ضيّق، يقع بين جدارين، أحدهما لأحد جوانب المدرسة الابتدائية، والآخر لأحد جوانب المدرسة الثانوية. منه نخرج إلى فناء يحيط به صفّ من الشجيرات . كانت الأرض التي نسير عليها مغطّاة بطبقة من رماد الفحم الحجري. هي مادة تستعمل في تجفيف الأماكن التي تعلو فيها نسبة الرطوبة الأرضية. يصدر عن مشينا على هذه الطبقة أصوات معدنية ناتجة عن احتكاك نعال أحذيتنا الحديدية بهذه الطبقة شبه الحجرية.

كنا نحن الثلاثة نجري في اتجاه باب الخروج، نخشى أن تفوتنا اللحظة. هو باب يفتح على شارع جانبي ضيّق. رغم ضيقه زرعوا على أحد جانبيه أشجار جمّيز ضخمة. يؤدّي بنا هذا الشارع إلى شارع

آخر، هو شارع الإمبراطورة، أحد أعرض شوارع مدينتنا. كان شارع الإمبراطورة في نفس هذه اللحظة من كل يوم، الشاهد الحيّ على هذه اللحظة من النهار، التي يمرّ فيها المتقاعد. هذه هي اللحظة التي ينبغي ألا تفلت من أيدينا.

كان هذا الشارع الجانبي الضيق، يكتظّ في هذه اللحظة، بالتلاميذ الأصغر منّا سنًّا، الذين ينتظرون حضور أحد أقربائهم، لاصطحابهم عائدين إلى المنازل. يبقون هنا يخافون الخروج إلى الشارع العريض. ينشغلون مؤقّتًا باللعب، بكريّاتهم الزجاجية الصغيرة الملوّنة. يحاولون إسقاط هذه الكريّات في الحفر الصغيرة. أما نحن وغيرنا من التلاميذ الأكبر سنًّا، فكنا نتلهّف على الخروج إلى الشارع العريض في انتظار لحظة مرور المتقاعد.

كان المتقاعد يضع فوق رأسه قبّعة صغيرة من اللبّاد الأخضر اللون. هو يغطي جسمه كله بمعطف طويل أسود اللون. ويمسك في يده بعصا خشبية عليها أشكال منحوتة نحتًا بارزًا. ويضع كمامة على أنفه وفمه صيفًا وشتاءً كما لو كان يخشى أن يكون الهواء الذي يتنفّسه ملوّثا. هو يمشي وجسمه ينحني إلى الأمام، مع احديداب واضح في منطقة الكتفين، كما لو أن عضلات ظهره لم تعد قادرة على شدّ جذعه إلى الخلف، ليتّخذ وضع الجسد القائم المستقيم. كانت للمتقاعد عادات يومية منتظمة لا تتغيّر. هو يمرّ من هذا المكان كل يوم في تمام الساعة الثانية بعد الظهر إلّا عشر دقائق.

يلحق به التلاميذ الأشقياء الثلاثة ويتبعون خطواته، مشوا خلفه ولكن على بعد ثلاثة أمتار منه. هم يحنون أجسامهم مثله ويمشون بنفس خطوته البطيئة، لكنهم لا يعرفون كيف يمكنهم تقليد احديداب الظهر. هم يسخرون منه فيما بينهم، ويضحكون بصوت منخفض حتى لا يسمعهم. هي لعبة مسلية مجانية لهم اكتشفوها بأنفسهم، وقرّروا اللعب بها لأطول فترة ممكنة. هم لن يدركوا حقيقة متاعب التقدّم في السنّ إلّا بعد نصف قرن من الزمان على أقلّ تقدير.

عند الوصول إلى تقاطع شارع الإمبراطورة مع شارع الماريشال ديمو، كان الرجل ينحرف إلى اليسار، إلى جهة مجهولة بالنسبة للتلاميذ الأطفال، فهم يتوقّفون هنا عن متابعته. يستأنف العفاريت الصغار مشيهم في الطريق المتجه إلى اليمين، وصولًا إلى محطّة قطار الضواحي؛ حتى يلحقوا بالقطار الذي يذهب بهم إلى الضاحية حيث يسكنون.

(٢)

غالبًا ما تكون الاكتشافات العظيمة وليدة المصادفة. هكذا وقع لاجريج، وهو أحد العفاريت الثلاثة، بجسمه كله على ركبتيه، فوق طبقة رماد الفحم الحجري. مما جعل ركبتيه تتعرّضان لتقشّر جلدهما في مواضع الاحتكاك. لكن ما يهمّنا هنا ليست حالة ركبتيه، بل حكاية أنه في سقوطه استند بيديه على الأرض، مما جعله يضع يده اليمنى

على قطعة صغيرة من حجر الصوّان، الناعم الأملس الشديد الصلابة. أخذها في يده قبل أن يقف على قدميه، ووضعها في جيبه.

قال روبير، وهو أحد العفاريت الثلاثة، إنه في نفس ذلك اليوم المشؤوم، اعتقد ثلاثتهم أن احديداب ظهر المتقاعد ليس حقيقيًّا. اعتقدوا أنه حتمًا يفتعل هذا الاحديداب بوضع طبقة من المطّاط عند منطقة الكتفين، تحت المعطف الطويل الأسود اللون الذي يغطّي جسمه كلّه. هنا جاءت فكرة لاجريج في ضرورة اختبار حقيقة هذا الاحديداب، باستعمال قطعة الحجر الصوّان التي في جيبه، وتصويبها نحو منطقة كتفي المتقاعد، والتحقّق من طريقة ارتطام الحجر بالكتفين، وطريقة ارتداده عنهما.

كان أول ردّ فعل للمتقاعد العجوز، هو أنه استدار بجسده كله، ليختبئ خلف جذع شجرة جمّيز، معتقدًا أنه قد يكون هناك المزيد من الاعتداءات، الموجّهة إلى شخصه الضعيف.

الأول: إنه ينظر إلى أعلى، كأنه يشتكي حظّه العاثر إلى السماء.

الثاني: غالبًا هو يعتقد أن شيئًا ما قد سقط على ظهره من هذه الشجرة.

بالطبع لاحظ المتقاعد أن العفاريت الثلاثة يتابعونه. بعد لحظات استأنف طريقه متذمّرًا، ومتلفّظًا ببعض الشتائم التي سمعها التلاميذ وردّدوها خلفه. استدار إلى الخلف عدّة مرّات، ناظرًا إلى نهايات أذرع العفاريت، خوفًا من أن يكون في يد أحدهم هناك المزيد من أحجار

الصوّان، التي يمكن أن تصيبه في مقتل هذه المرّة، لو أنها صوّبت إلى رأسه. هم لم يكونوا يدركون مدى خطورة هذه اللعبة. بسبب ظهور الخوف على وجه المتقاعد، شعر العفاريت بالمزيد من الإثارة والتشويق. لذلك قرّروا اليوم ولأول مرّة في تاريخ هذه الحكاية، الانحراف إلى اليسار خلف المتقاعد، ونسيان مسألة قطار الضواحي لبعض الوقت.

(٣)

أصبحت من عاداتهم اليومية استئناف السير خلف المتقاعد، بالانحراف معه إلى اليسار. أعجبتهم جدًّا هذه اللعبة، وقرّروا أن يبتكروا فيها يومًا بعد يوم، المزيد من عناصر الإثارة. تنافسوا فيما بينهم على إظهار ملامح العبقرية الكامنة في تلافيف مخّ كلٍ منهم. في حصّة الأشغال اليدوية، ابتكروا صواريخ كرتونية صغيرة، تحمل في باطنها خزّانات صغيرة بها سوائل ملوّنة، مثل الأحبار والصبغات المذابة في الماء، التي إذا لوّثت الأقمشة، تصعب إزالتها من عليها. ثم أضافوا إلى الصواريخ رؤوس معدنية مدبّبة، مثل الأسهم الصغيرة، التي يمكنها بسهولة أن تجرح جلد البشرة إذا أصابته. من قال إن الأطفال ملائكة؟

بدأوا يستعملون مفردات جديدة لم تكن من قبل تخطر لهم على بال. فبدلًا من كلمات مثل (المتقاعد) أو (العجوز)، التي كان بها

قدر من الاحترام، أو على الأقلّ قدر من التعاطف، بدأوا في استعمال كلمات مثل (الخنزير) و(القذر). اعتقدوا أن إصابة هذه الصواريخ لجلد الخنزير، قد تجعله يرتدّ بجسمه إلى الخلف، من شدّة إحساسه بالألم، واقفًا باستقامة، ليتأكّدوا بذلك من مسألة وجود أو عدم وجود، طبقة المطّاط الموضوعة تحت المعطف عند منطقة الكتفين. توقّعوا أنه كالمعتاد في مثل هذه الحالة، ألا يزيد ردّ فعله عن توجيه بعض الشتائم إليهم، فيضحكون منها ويستأنفون لهوهم وسخريتهم منه.

جاءتهم في اللحظة الأخيرة فكرة إضافية. وهي أن يُشاغل اثنان منهم الخنزير بالنظر خلفه، في نفس الوقت الذي يجري فيه لاجريج ليسبق العجوز، ويتسلّق فوق أحد جذوع شجرة الجمّيز، وينتظر لحظة مرور الخنزير تحتها، فيقفز على كتفيه ويختبر بنفسه إن كانا من المطّاط أم لا. فكرة عبقرية. نجحت الخطّة تمامًا كما رسموها. لكن جسم العجوز الضعيف لم يتحمل وزن جسد لاجريج، الذي لا يقل عن خمسين كيلو جرامًا، فسقط العجوز على الأرض.

ارتدّ العجوز واقفًا على الفور، بسرعة بدت للعفاريت غير مناسبة لمظاهر انهياره الجسدي. نظر إلى الصبي المتدحرج على الأرض. أخرج العجوز يده اليمنى من جيب معطفه الأسود، وقد أمسكت بمسدّس من طراز قديم. صوّب فوهة المسدّس باعتناء شديد إلى جسد الصبي، وأطلق ست رصاصات متتالية، أصابت كلها الهدف.

لم تخطئ واحدة منها الهدف. كان جسد لاجريج يهتزّ في كل

مرّة تصيبه فيها رصاصة جديدة من الأولى إلى الرابعة. أما الرصاصتان الخامسة والسادسة فلم يعقبهما أيّ اهتزاز. أصبح الجسد هامدًا تمامًا. نفخ العجوز في فوّهة المسدس وأعاد وضعه في جيبه. استأنف طريقه اليومي المعتاد. وجّه العفريتان الصغيران نظرهما إلى ثالثهما المطروح أرضًا، وقد ظهرت تحت جسده، بقعة من الدماء الداكنة، كانت تزداد اتساعًا لحظة بعد أخرى.

* * *

حياة المؤلّف بوريس فيان

١٩٢٠: مولده لأب من عائلة ثريّة، تعيش في منزل كبير بحديقة، في منطقة من ضواحي الأثرياء إلى الجنوب الغربي من باريس، غير بعيدة عن مجرى نهر السين.

– عاش الأب دون أن يكون مضطرًّا إلى العمل، بفضل ريع من ممتلكات زراعية وعقارات ورثها عن عائلته، لذلك كان متفرّغًا لتذوّق كل أشكال الثقافة الرفيعة. كان هذا الأب معاديًا للكنيسة المسيحية ولكل أشكال التديّن.

١٩٢٦: دخل بوريس المدرسة الابتدائية بالقرب من منطقة سكن عائلته، وقد اعتادوا على قضاء الإجازات الصيفية، أثناء العطلات المدرسية، في منزل آخر للعائلة على شواطئ بحر المانش.

١٩٢٩: بداية معاناة الأسرة التي ستستمرّ لبضع سنوات، بسبب نقص عوائدها بشكل مطّرد، بعد انهيار أسواق المال، وبداية الكساد العظيم الذي أصاب كل اقتصاديات دول العالم، وستدوم توابعه حتى منتصف الثلاثينيات.

١٩٣٣: بداية ظهور أعراض مرض روماتيزم في القلب، التي عانى منها بوريس طوال حياته، وتسبّبت لاحقًا في وفاته.

١٩٣٦: بدأ بوريس في تعلّم العزف على عدد من آلات النفخ النحاسية ومنها الساكسوفون والترومبيت، وكوّن بالتالي مع إخوته الذكور الثلاثة وبعض أصدقائه، فرقة لموسيقى الجاز *jazz*، كانت تقيم حفلات دورية، في قاعة كبيرة كانت تقع داخل حدود حديقة المنزل. كان ذلك العام هو بداية فترة النقاهة الاقتصادية من مرحلة الكساد العظيم.

١٩٣٧: الحصول على شهادة البكالوريا الفرنسية (الثانوية العامة)، وكان بوريس قد اختار هذه المواد للمستوى الرفيع، اللغات اللاتينية واليونانية والألمانية، والفلسفة والرياضيّات.

- في الإجازة الصيفية انضم بوريس إلى فرقة محترفة لعزف الجاز في أندية باريس الليلية.

- في نفس الوقت التحق بالدراسة لمدّة عامين دراسيين كاملين، في معهد متوسّط متخصّص في الرياضيّات، لتحسين فرص التحاقه بالجامعة.

١٩٣٩: قبول بوريس في كلّية الهندسة بجامعة باريس، وهي التي كانت تحمل حتى ذلك الوقت اسم (المدرسة العليا للفنون والصنائع) *Arts et Metiers*.

- في صيف ذلك العام يحضر حفلًا لأسطورة الجاز العازف

الأمريكي الأسود ديوك إيلينجتون *Ellington*، فيزداد تصميمه -رغم التحاقه بالجامعة- على تكريس حياته لهذا النوع من الموسيقى.

- في أول سبتمبر من ذلك العام تمّ إعلان فرنسا وإنجلترا الحرب على ألمانيا الهتلرية. لم يُجنّد بوريس بسبب اعتلال صحّته.

- تمكّن مع بداية العام الدراسي، من الانتقال مع كلّية الهندسة، إلى مقرّها المؤقّت في مدينة أنجولام *Angouleme* ، التي تقع على بعد حوالي ٤٠٠ كيلومتر إلى الجنوب الغربي من باريس.

١٩٤٠: عند احتلال باريس بواسطة قوّات النازي، حدثت هجرة جماعية من باريس إلى المدن الفرنسية البعيدة عن سيطرة الألمان، فجاءت إلى أنجولام الفتاة ميشيل لجليز، التي يساعدها بوريس في تعلّم اللغة الانجليزية، وفي ترجمة روايات أمريكية إلى الفرنسية، ثم يقرّران الزواج.

١٩٤٣: يتخرّج بوريس من كلّية الهندسة، في قسم التعدين، ويلتحق بوظيفة حكومية في المؤسّسة القومية للقياسات العيارية.

- يستقرّ مع زوجته في باريس، في شقة بالحيّ العاشر، حيث ينجبان ابنهما الأول باتريك.

- رغم مجهود القيام بالوظيفة الصباحية، لا يستطيع بوريس مقاومة إغراء الانضمام إلى فرقة جاز محترفة، في ملهى ليلي بباريس. تزداد شهرته كعازف ترومبيت.

- في نفس الوقت يكتب روايته الأولى (حصاد مضطرب) التي لن تنشر إلّا بعد وفاته.

١٩٤٤: مات والده مقتولًا برصاصة طائشة.

- عند تحرير باريس في أغسطس من ذلك العام، من الاحتلال النازي، كان بوريس مشغولًا بقصائد ديوانه الشعري الأول، الذي يحتوي بالأحرى على العديد من الأغنيّات، التي سيتمّ لاحقًا تلحينها وغناؤها. هنا تبدأ شهرته كمؤلّف لكلمات الأغاني للعديد من مطربي فرنسا المشهورين.

١٩٤٥: يشارك في جولات فنّية في أنحاء فرنسا، وفي بعض الدول الأوربية، مع فرقة جاز المحترفين التي انضمّ إليها.

- يكتب مقالات في النقد الأدبي والفني.

- يظهر كومبارس في أول دور سينمائي له.

١٩٤٦: يلتقي بمجموعة المفكّرين الجدد، من العاملين في تحرير مجلّة العصور الحديثة، وهم جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار وألبير كامي، وينشر في هذه المجلّة يوميّات كذّاب.

- يساهم في إنشاء (كهوف الجاز)، وهي أندية ليليّة تحت الأرض، لعزف هذا النوع من الموسيقى. أغلب أعضاء هذه الكهوف كانوا من الوجوديين أتباع سارتر.

- ينتهي من كتابة روايتيه الأكثر شهرة، وهما (زبد الأيام) و(الخريف في بكين)، ولا تستغرق كتابة الواحدة منهما أكثر من شهرين اثنين.

- يبدأ في كتابة رواية ثالثة في هذا العام، هي رواية (سأذهب لأبصق على قبوركم)، وينشرها مجزّأة فتجد رواجًا كبيرًا، حتى إنها تعتبر أكثر الروايات الفرنسية رواجًا لذلك العام، إلّا أنها تواجه مشاكل قانونية، عندما أعلن إنها النسخة الفرنسية بتصرّف، لرواية كاتب أمريكي أسود هو فرنون ساليفان *Sullivan*.

١٩٤٧: ينشغل فترة طويلة من هذا العام بالمشاكل القضائية، حول حقوق التأليف والترجمة والتصرّف والنشر، مع المؤلّف الأمريكي ساليفان، في المحاكم الفرنسية والأمريكية، مما تسبّب لبوريس في الكثير من المشاكل المالية.

- هذا بالإضافة إلى مجموعة القضايا المرفوعة على بوريس، من طرف بعض رجال التربية والتعليم والكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، بدعوى أن هذه الرواية هي دعوة إلى الفسق والفجور والإباحية الجنسية.

- انضمّ كعازف ترومبيت إلى أشهر فرقة جاز فرنسية، وهي الفرقة التي أطلقت على نفسها اسم (نادي المحرّمات) *Taboo Club*.

- يبدأ في إصدار مجلّة شهرية عن موسيقى الجاز تستمر عشر سنوات.

- يهجر تمامًا كل ما له صلة بمهنة الهندسة وبالوظائف الحكومية.

١٩٤٨: مولد ابنته كارول.

- ينشر مجموعته الشعرية الأولى، تحت عنوان مختارات بارنم

Barnum s Digest، ويترجم رواية ساليفان المسمّاة (وسنقتل كل البشعين) من الإنجليزية إلى الفرنسية.

١٩٤٩: ينشر مجموعته الشعرية الثانية تحت عنوان (أغنيات شعبية كئيبة متجمّدة)، ومجموعته القصصيّة (الديدان).

١٩٥٠: نشر رواية (العشب الأحمر).

- نشر الترجمة الفرنسية لرواية ثانية لساليفان تحت عنوان (وهنّ لا يدركن أي شيء مما يدور حولهنّ).

- نشر كذلك رواية (السلخ والتقصيب لكل البشر)، والمقصود بالتقصيب هو الإفادة من كل أجزاء جسد الحيوان بعد ذبحه وسلخ جلده.

١٩٥١: نشر رواية (وجبة خفيفة للواءات الجيش).

- أنشأ (مع آخرين) نادي العلماء المغامرين. والاسم الذي أطلقه هو على هذا النادي بالفرنسية من اختراعه، ويتكون من بداية كلمة علماء *savants*، ومن نهاية كلمة مغامرين *aventuriers*، وهي كلمة *savanturiers*، وكان بوريس مولعًا بابتكار الكلمات الجديدة، وهو ما يسمى بالفرنسية *neologisme*. كان هذا النادي يجمع بين عدد من مؤلّفي روايات الخيال العلمي.

١٩٥٢: بعد علاقة سريعة عابرة بين بوريس وأورسولا (راقصة سويسرية)، ميشيل زوجته تطلب الطلاق وتحصل عليه، بعد زواج دام عشر سنوات، وتترك له الطفلين باتريك سبع سنوات وكارول سنتان.

- الدخول في عالم الإنتاج الاستعراضي *Show business*، بتأليف وتلحين وإخراج الأعمال الموسيقية المسرحية.

- نشر المجموعة الشعرية (لا أريد أن أموت).

- بدأ في دراسة علم الباتافيزيكس *pataphysics*، وهو النظام الفلسفي الذي ابتكره ألفريد جاري *Jarry*، وهو مؤلّف مسرحي فرنسي، من نهاية القرن التاسع عشر، ويُعَرّف بأنه علم الحلول الخيالية، وتم تطبيقه على شخصيات وأحداث مسرحيّات جاري وأونيسكو.

١٩٥٣: الاشتراك في تقديم أوبرا (فارس الثلوج).

- نشر روايته (نازع القلوب).

١٩٥٤: بداية حرب الجزائر.

- زواج بوريس وأورسولا، وسفرهما معًا في جولة فنّية هو يغني وهي ترقص.

١٩٥٥: يصرّح للآخرين بأن لديه إحساس باقتراب موته. لذلك يقرّر عدم رفض أي عمل يعرض عليه. فيعمل مديرًا فنيًّا للتسجيلات الموسيقية والغنائية في شركة فيليبس الهولندية. ويؤلّف أغنيّات عديدة لنجوم الغناء يلحّنها هو أو يتركها لآخرين يلحّنونها. ويشترك في كتابة عدد من سيناريوهات الأفلام السينمائية.

- يسجّل ألبومًا غنائيًّا بصوته بعنوان (أغنيّات ممكنة وأغنيّات مستحيلة).

١٩٥٦: إعادة طبع (الخريف في بكين) بعد إدخال الكثير من التعديلات عليها. رغم مرور تسع سنوات على طبعتها الأولى.

- يصاب بأزمة صحّيّة شديدة تجعله يشعر بالاختناق، بسبب حالة احتقان رئوي نتجت عن ضعف عضلة القلب.

١٩٥٧: تأليف مسرحية (بناة الإمبراطورية)، التي لن تطبع وتلعب على المسرح إلّا بعد وفاته سنة ١٩٥٩.

١٩٥٨: الاشتراك في الإعداد الفني لأوبرا (فييستا) *Fiesta*، أي الاحتفال، في مسرح ببرلين، وهي للموسيقي الفرنسي داريوس ميلو.

١٩٥٩: الاشتراك في الإعداد الفنّي للفيلم السينمائي، المستوحى من روايته (سأذهب للبصق على قبوركم)، مع لعب أحد الأدوار فيه.

- في ٢٣ يونيو من ذلك العام يموت بوريس وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، بسبب حالة هبوط حاد في القلب.

١٩٦٠: إعادة طبع مجموعته القصّصية (الديدان)، وروايته (سنقتل كلّ البشعين).

١٩٦٢: قيام النقّاد الأدبيين والفنّيين بإعادة تقييم أعماله، وإعادة الاعتبار للإرث الأدبي والفني الذي تركه، فبسبب الكثير من اللغط حول أعماله في حياته، لم يحصل على التقدير إلّا بعد وفاته.

١٩٦٨: تصبح أشعار بوريس من أهم ما ردّده الطلبة الباريسيون، المشاركون في ثورة شباب مايو من ذلك العام، ضد جيل الشيوخ.

رواية العشب الأحمر

حوار مع الناقد الأدبي: جيلبير ريستيرو

١- ما هو موقع رواية (العشب الأحمر) في مجمل الإنتاج السابق عليها للروائي بوريس فيان؟

بعد أن كان بوريس فيان قد كتب أولًا رواية حبّ رومانسية مثالية، هي رواية (زَبَد الأيام)، التي تتصادم فيها المصائر المأساوية لأبطالها، وبعد روايته الثانية (الخريف في بكين)، التي قام فيها المؤلّف برحلة ساخرة إلى بكين، قام فيها بتلقين نفسه أسرار التدريب الروحي، يكتب هنا في (العشب الأحمر) رواية ثالثة، تدور أحداثها حول مهندس شاب، لا يشعر أبدًا بأنه أنجز أي شيء في حياته، ولا حتى أنه قادر على إقامة علاقات طبيعية مع المحيطين به، وهو ساخط دائمًا على كل ذكريات حياته، منذ طفولته التعيسة المبكّرة، وعبر مراهقته البائسة، وصولًا إلى مرحلة المعاناة المستمرة في شبابه.

٢- ما رأيك في مسألة الماكينة؟

هي فكرة تتفق مع العصر. فهذا المهندس رغم كل ذلك الإحساس بالفشل، ينجح في اختراع ماكينة حديثة، تتفق في فكرتها مع بداية عصر

غزو الفضاء، في خمسينيات القرن العشرين. نحن نعلم أن بوريس قد حصل على بكالوريوس في هندسة المعادن، لذلك فإن الاختراعات العلمية لم تكن بعيدة أبدًا عن مجالات اهتمامه. إلَّا أن تلك المجالات كانت متعدّدة ومتباينة.

٣- ما هي تلك المجالات المتباينة؟

فهو غير كونه مهندسًا وفق دراسته الجامعية، عمل عازفًا موسيقيًّا على آلات النفخ النحاسية، مع فرق المحترفين في الملاهي الليلية بباريس لسنوات طويلة، وقام بتأليف وتلحين الأغنيّات، التي غنّاها بنفسه، أو أعطاها إلى غيره ليغنّوها. ثم دخل في مجال السينما كمؤلّف سيناريوهات الأفلام، ثم كممثل في بعض الأدوار الصغيرة. هذا بالطبع إلى جوار رواياته ومجموعاته القصصية وأشعاره.

٤- ما هو النوع الأدبي الذي تنتمي إليه الرواية؟

يمكن ببساطة اعتبار أن رواية (العشب الأحمر)، تجمع بذكاء بين نوعين أدبيين، هما (السيرة الذاتية) و(الخيال العلمي). مع استعمال أسلوب في اللغة، يجمع بين السخرية من الأحداث، والاستخفاف بالشخصيّات. وهذا الأسلوب يتفّق تمامًا مع شخصية المؤلّف الحقيقية العابثة اللاهية الساخرة المستخفّة، التي تتميّز كذلك بروح الدعابة، وبالتالي فإن الفقرات التي تقترب من معالجة موضوع التحليل النفسي، الذي كان قد بدأ في الانتشار في أوروبا منتصف القرن العشرين، عرضها بقدر من السخرية والاستخفاف، مما يشير إلى رغبة المؤلّف في التقليل من شأنها.

٥- هو يسخر من السماء، فهل كان يسخر كذلك من العلم؟

هذا هو الانطباع الذي يتولّد لدينا، فيما يتعلّق بمسألة علمية مثل اختراع الماكينة، التي نشعر فيها أحيانًا بنفس القدر من السخرية والاستخفاف، بل نشعر فيها أحيانًا بقدر من العبث والهذيان.

٦- ما رأيك في نهايات أبطاله؟

إن نهاية البطلين الرئيسين لهذه الرواية بالانتحار، فأحدهما يصعد إلى قمّة جبل ويترك جسده يتهاوى إلى القاع، والآخر يطعن نفسه بسكّين، هذه النهاية قد تجعلنا نعتقد، كما لو أن البشر غير قادرين على حلّ مشكلاتهم الوجودية إلّا بالانتحار.

٧- وما هو موقفه من النساء؟

على عكس الرجلين فإن امرأتيهما تجسّدان السعادة والنجاح في الحياة، وتمثّلان الاتساق التام بين جسديهما وروحيهما. كما أن هاتين المرأتين تتسمان بصفات إيجابية كثيرة، منها الجمال والشجاعة والاتزان النفسي.

٨- ما في اعتقادك هو تفسير ذلك؟

رأيي هو أن بوريس كان يعتقد أن المرأة وحدها هي القادرة على أن تنجو بنفسها، من هذا العالم المتهالك، ومن ذكريات الحياة السلبية، ومن الإحساس بالذنب، أما الرجل فهو غير قادر. بوريس يجعلنا نظنّ أن الأمل الوحيد في مستقبل البشرية هو عبر إعطاء السلطة لنصفها الجميل.

٩- هل هذه هي الرسالة التي يودّ هذا العمل نقلها إلينا؟

إن قراءة بوريس فيان، تجعلنا نعتقد أنه غالبًا ما يشير إلى أمل آخر

للبشرية، هو في الاستمتاع بالحياة، هو في الطيش والنزق والعبث والتفاهة، وكل تلك المتع الحسيّة الزائلة في الحياة، التي تجلبها لنا اللوحات الفنّية والأغنيات والموسيقى والأفلام السينمائية والروايات والمسرحيات، التي رغم احتمال كون بعضها تافهًا، إلّا أنها أصبحت أساسية في الحياة.

١٠- ما هو رأيك في أسلوبه الأدبي؟

إن أسلوب بوريس الأدبي، يستعمل مفردات مختلفة عن القاموس المعتاد، مفردات تعبّر عن رؤية استثنائية للإنسان وللعالم، رؤية ساخرة من المصائر والأقدار، قد تصل في بعض الأحيان إلى درجة الوقاحة.

١١- ما هو الإحساس العام الذي يسود كتاباته؟

رغم الروح الساخرة، هو الإحساس بالكرب والغم النفسيين، أو بالأحرى فلنقل الوجوديين، اللذين يصاحبان الإنسان في حياته في القرن العشرين، بسبب الخوف من الفناء التام، الذي أصبح يهدّد وجود البشر، الذي أصبح الآن أشدّ وضوحًا، مما كان عليه في أي وقت آخر من تاريخ البشرية، مع كل أسلحة التدمير التي ظهرت خلال نصف هذا القرن.

١٢- لماذا يقال إنها رواية انقسام بين متضادات؟

انظر إلى كل تفاصيل مواقف الرواية، وتصرّفات أبطالها، ستجد أنها دائمًا تقف في المنتصف بين أمرين، فهناك المغامرة المادية بالجسد، والمغامرة الاستبطانية بالروح، وهناك الذهاب إلى عوالم حقيقية، والذهاب إلى عوالم خيالية، وهناك مشاعر الحبّ، ومشاعر الكراهية، وهناك التردّد بين البقاء في المكان، وبين الرحيل منه، هناك كذلك

الصراع بين الإنسان، وبين ظلّ هذا الإنسان. الملمح الغالب إذن هو هذه الثنائية. لو أن وولف وبوريس هما في الحقيقة فعلًا نفس الشخص، لقلنا إن بوريس كان يعاني من مرض الفصام النفسي (السكيزوفرينيا). إلّا أن أهمّ فكرة هنا هي فكرة أن وولف/ بوريس، كان مضطرًّا للصعود إلى السماء، حتى يتمكن من الهبوط إلى أعماق نفسه، وبالتالي فهناك فكرة متكرّرة في العمل، هي فكرة الصعود والهبوط.

١٣- ما هو تأثير عمل بوريس في السينما، على الطريقة التي ألّف بها روايته؟

استعمل بوريس أسلوب القصّ واللصق، أي تقطيع اللقطات ثمّ إعادة لصقها، أو إعادة تركيبها، المعروف في السينما باسم المونتاج، وهو ما يسمح بإعادة ترتيب المناظر، لخلق التأثيرات المطلوبة، واختيار إيقاع العمل.

١٤- وما هو تأثير عمله في الموسيقى؟

يمكن للبعض أن يطلق اسم الكتابة (الأرجوحية) *swing*، على الأسلوب الذي استعمله بوريس في روايته هذه، وهو أسلوب الذهاب إلى أقصى ارتفاع ذات اليمين، ثم الذهاب إلى أقصى انخفاض ذات اليسار. هذا هو أسلوب موسيقى الأمريكيين السود المعروف باسم الجاز *jazz*، عندما يكون البناء اللحني قويًّا واضحًا، لكن مداخلات الآلات المنفردة تكون مرتجلة غير واضحة، أو تكون بدايات اللحن يائسة متخاذلة تمامًا، وتكون نهاياته حماسية مرحة. هذا هو التراوح بين الجدّية والسخرية، أو الضحك على خلفية من الألم، والحنان على خلفية من القسوة، والرقّة على خلفية من العنف.

العشب الأحمر

مقال للناقد الأدبي جيلبر ريستيرو

١- النسخ المتتالية من الرواية

على العكس من بقيّة أعمال بوريس الروائية، التي كتب كلًّا منها متعجّلًا في أسابيع قليلة، ونشرها دون أيّ مراجعة، فإن (العشب الأحمر) قد حصلت أثناء كتابتها على اهتمام خاص، واستغرقت منه وقتًا طويلًا، بدليل أن الكرّاسات التي كتب فيها بوريس مسودّات هذا العمل، تبدأ في أغسطس ١٩٤٨ ولا تنتهي إلّا في سبتمبر ١٩٤٩.

تحتفظ هذه الكرّاسات بالعديد من الفقرات المشطوب عليها، والتي لا يمكن العثور عليها في العمل المنشور، منها مثلًا فقرة طويلة عن بناء سلّم يصل بين الأرض والسماء، وهي فكرة قديمة في كل التراث التوراتي، تعود إلى زمن نبيّ الله يعقوب، ابن نبيّ الله إسحق، وحفيد نبيّ الله إبراهيم، الذي كتبت عنه التوراة أنه رأى في أحد أحلامه، أنه يصعد إلى السماء على سلّم واصل بين الأرض والسماء.

قد تكون فكرة انتقال البطل (وولف)، من الأرض إلى السماء، على ظهر حصان مجنّح، قد خطرت على بال المؤلّف، وهي الفكرة التي كان أبطال التراجيديات الإغريقية، تلك المسرحيات الدرامية المأساوية العنيفة، يلجأون إليها، إلّا أن المؤلّف عثر على فكرة أخرى، أكثر اتساقًا مع طبيعة العصر الحديث، عصر بداية التفكير في غزو الفضاء.

إذ لاحقًا تغيّر السلّم التوراتي، بما يتفّق مع التقدّم العلمي للقرن العشرين، إلى الماكينة/ الصاروخ (التي أحدثت ثقبًا في السماء عندما اصطدمت بها، وأنه من هذا الثقب نزفت السماء كمّيّة هائلة من الدماء)، فالسماء هنا هي كائن حيّ تتغذّى بشرته بشرايين الدماء مثل الكائنات الإنسانية.

مسألة إحداث ثقب في السماء حوّلها البعض ممن حلّلوا أعمال بوريس لاحقًا بعد وفاته، إلى صورة اقتحام/ اختراق جنسي، على أساس أنه كان مهووسًا بالجنس وبالصور الجنسية، وهي هنا مثلًا صورة اقتحام عضو ذكري (القمّة المدبّبة للماكينة)، لجسد أنثى (السماء). كما أن بعض الرسّامين، ممن قاموا بتخيّل شكل هذا الصاروخ/ الماكينة المنطلق إلى الفضاء، جعلوه قريب الشبه من تكوين برج إيفل، بقاعدته المربّعة، الواقفة على قوائم أربعة، وبقمّته المدبّبة.

من بين العلامات الدالة على التردّد، الذي أصاب بوريس أثناء العمل في (العشب الأحمر)، هو أنه اختار له في مراحل مختلفة ثلاثة عناوين مختلفة، هي بترتيب ظهورها على الغلاف (الصور الميّتة) و(الرأس الفارغة) و(السماء المثقوبة). وهو كذلك أن اسم بطل العمل

كان في البداية (رالف)، وهو اسم والد زوجة بوريس الذي كان قاضيًا في مدينة بوردو الفرنسية، ثم تغيّر إلى (وولف) ويعني ذئبًا بالإنجليزية، وهو اسم نادر الاستعمال جدًّا في فرنسا.

٢- الخطوط السردية

يعتقد كل من علّقوا على هذا العمل، أنه يتكوّن من خطّين سرديين واضحين، الأول هو رحلة خيالية إلى السماء، والثاني هو ذكريات ماضي البطل (وولف)، الذي هو في الحقيقة ليس إلّا بوريس نفسه يروي ماضيه.

يمكنني هنا أن أضيف خطًّا سرديًّا ثالثًا هو الفصول المتعلّقة بالليلة التي قضاها (وولف) و(لابيس) معا، متنقّلين بين أحياء الدعارة والألعاب والكهوف التحت أرضية، وفيها مجال واسع للحديث عن الارتباط غير الواضح، بين عوالم الوجوديين الفرنسيين، وعوالم التشكيليين السيرياليين.

ثم إن بوريس هنا لا يشير إلى الترتيب الزمني (الكرونولوجي) للأحداث، فالفصول لا تذكر الزمن الذي تقع فيه أحداثها، بالنظر إلى الأحداث التي تقع في فصول أخرى، وهو ما يميل البعض إلى تسميته (تقطيع أوصال السرد)، وهو ما سيصل بنا لاحقا في الرواية الحديثة إلى ما يسمّى حاليًا التشظّي.

إلا أنه من الملاحظ كذلك، أن الأحاديث والحوارات التي دارت بين وولف، وبين الشخصيات التي قابلها في الماوراء، مثل شخصيّات

الرجل العجوز والقسّ والمرأتين وموظّف الضرائب، هي أحاديث وحوارات التزمت بالخط الزمني؛ إذ كان الحوار الأول حول الطفولة، والثاني حول المراهقة، والثالث حول المدرسة الابتدائية، والرابع حول مرحلة الشباب والدراسة الجامعية، والخامس حول النساء، وهكذا.

يمكنني هنا أن أضيف بعض الانطباعات الأخرى، مثل اعتبار أن رحلة بوريس إلى السماء، هي من نفس نوع الرحلات، التي كان أبطال الأساطير القديمة يقومون بها، إلى الأماكن المقدّسة، للوصول إلى مرحلة التطهّر (كاتارسيس) *catharsis*. وهو ما يمكن أن يجعلنا نشير إلى مطهر دانتي في الكوميديا الإلهية.

ومثل اعتبار هذه الرحلة نوعًا من (الاستبطان) *introspection*، أي نظر الإنسان إلى داخله، إلى الجزء المخفي منه، بحثًا عن إجابات على أسئلة وجودية تؤرّقه، لا يجد في واقعه المحيط به، وهو شخص ناضج، ما يمكن أن يساعده في العثور على إجابات لها، فيعود إلى زمن بدايات حياته. هذا هو السبب الذي جعل بوريس، في فقرات متفرّقة من الرواية، يسخر من كل ما يشير إلى عمليات التحليل النفسي الفرويدي، التي كانت سائدة، في روايات تلك الفترة من منتصف القرن العشرين.

٣- العناصر الشخصية والعامة التي أثّرت في الرواية

هناك الكثير من العناصر المتنوّعة، التي أوحت إلى بوريس بتفاصيل روايته:

١- الذكريات الشخصية، لمرحلتي الطفولة والمراهقة. يمكنني

كذلك أن أضيف إلى هذا البند عنصرًا آخر، هو القرارات التي كان على المؤلّف/ البطل (بوريس/ وولف)، أن يتخذها في حياته، التي اتضح له فيما بعد أنها لم تكن قرارات صائبة، مثل دراسة هندسة التعدين، فهذا القرار كان خاطئًا، لمن كان يهوى الموسيقى إلى الدرجة التي كان عليها بوريس، في نهاية مرحلة المراهقة؛ إذ كان من الأجدى له أن يدرس التأليف الموسيقى في الجامعة، بدلًا من دراسة هندسة التعدين.

٢- الظروف السياسية والاقتصادية لتلك الفترة من القرن العشرين؛ إذ يجب أن نضع في اعتبارنا أن فترة طفولة ومراهقة بوريس، من سن خمس سنوات إلى سن تسعة عشر عامًا، هي فترة حرجة تمامًا. فلمن كان مولودًا سنة ١٩٢٠، ستكون هي الفترة بين ١٩٢٥ و١٩٣٩، وهي بالتالي تشمل تغيّرات هامة في تاريخ البشرية

- فهناك أولًا العصر الجميل *la belle epoque*، الممتد بين نهاية الحرب الأولى، وبداية الكساد العالمي، أي بين ١٩١٩ و١٩٢٩.

- ثم هناك فترة المعاناة من التدهور الاقتصادي التي جاءت بعد الكساد العالمي، أي بين ١٩٢٩ و١٩٣٦، وهي في فرنسا كانت أقلّ وطأة مما كانت عليه في أمريكا.

- ثم تأتي فترة حكومة رئيس الوزراء ليون بلوم، وهي أول حكومة اشتراكية في فرنسا، بين ١٩٣٦ و١٩٣٩.

٣- أما فيما يتعلّق بمسألة التعليم العام، فغالبًا سيكون بوريس تلميذًا متفوّقًا، رغم كلّ ما ذكره من آراء سلبية، حول التعليم العام في المدارس على زمنه، فهو لم يرسب أبدًا في المدارس، بل تمكن بعد أن

حصل على البكالوريا، من الالتحاق بمعهد متوسّط، ليتمكن لاحقًا من الالتحاق بكلية الهندسة.

٤- كانت مسألة التربية المنزلية أشدّ تعقيدًا؛ إذ كان انتماء والديه إلى الطبقة البورجوازية فوق المتوسّطة، خاصة مسألة عدم انشغال الأب والأم بالعمل، أو حتى بمجرّد الخروج من المنزل، جعلهما يكرّسان كل وقتهما لبوريس، وكان هذا هو هو السبب المباشر، في تلك الحماية الزائدة التي فرضاها عليه، التي أدّت في النهاية إلى أن أصبح، وهو شخص بالغ، أكثر ميلًا إلى الانعزالية والتقوقع، عن الاتصال بالناس والاندماج معهم، وأكثر إحساسًا بالقابلية للكسر، عن الإحساس بالقدرة على المواجهة، مما جعله كردّ فعل دفاعي، دائم السخرية من كل شيء، أي من كل تلك المؤسّسات التي عذّبته.

٥- علاقته بالكنيسة كانت سطحية جدًّا؛ إذ كان دائم الميل إلى السخرية علنًا ودون مواربة، من كل ممارسات الكنيسة، الكاثوليكية الفرنسية بشكل خاص، ومن كلّ المعتقدات المسيحية المبنية على التوراة والإنجيل بشكل عام.

٦- التحفّظ الجنسي الذي كان هو قد فسّره في بعض كتاباته، بأن السبب فيه هي والدته، إذ قال إن غباءها وسطحيتها، جعلاه يصدر حكمًا مسبّقًا، بالغباء وبالسطحية على كل نساء العالم، فكان يشعر بالنفور منهنّ. بالإضافة إلى عنصر آخر، هو خوفه من الإصابة بالأمراض، التي تنتقل عبر الممارسات الجنسية مع نساء محترفات، مما جعله يخاف من النساء بشكل عام، وأقنعه بقبول الزواج من تلك التي اختارها له والداه.

٧- فشل زواجه بسبب انعدام الخبرة الجنسية، وغياب الحدّ الأدنى من الثقافة الجنسية، لكل من الزوج والزوجة، مما جعل هذا الزواج ينتهي بالطلاق. ويقال إن زواجه الثاني من الراقصة أورسولا، كان أكثر توفيقًا.

٤- هل كان بوريس يفكّر في الانتحار؟

رغم وجود ثلاث حالات انتحار، منها حالتان في الرواية، وحالة في المجموعة القصصية الملحقة بها، إلّا أن بوريس لم يذكر أبدًا طوال حياته، أنه يفكّر في الانتحار. بالإضافة إلى عنصر آخر له اعتباره، فشخصية وولف بطل الرواية، تبدو سوداوية متشائمة، وهو نرجسي متمركز حول ذاته، لم يتمكن من القفز فوق العقبات والحواجز، التي وضعت في طريقه منذ طفولته. في حين أن شخصية بوريس كانت أكثر تفاؤلًا وإقبالًا على الحياة، وأكثر حيوية ونشاطًا، برغم إصابته برومانتيزم القلب في طفولته، وضعف صحّته بشكل عام خلال حياته.

وأعتقد أن هذا التفاؤل وتلك الحيوية، كانا بفضل الأنشطة الفنّيّة المتعدّدة، التي أقبل على ممارستها، مثل عزف الموسيقى، وتأليف وتلحين وغناء العديد من الأغنيات، والاشتراك في كتابة سيناريو ولعب أدوار وإنتاج أفلام سينمائية ومسرحيات. ثم تمكّن في منتصف الخمسينيات، من التأقلم سريعًا، عندما انتقلت الصرعة الموسيقية من الجاز إلى الروك آند رول. كان بوريس قادرًا على إقامة علاقات اجتماعية جيّدة مع من حوله، بدليل عمله في تسويق المنتجات الموسيقية.

من دلائل إقبال بوريس على الحياة كذلك، أنه كان يشتري لنفسه أحدث موديلات السيّارات الأمريكية، التي ترد على باريس. اشترى

ذات مرّة سيّارة من ماركة برازييه *Brazier*، التي لم تكن قد أنتج منها إلّا بضع مئات، واعتبرت أنها مصنوعة خصّيصًا لهواة اقتناء المجموعات النادرة من السيّارات.

ولا أوافق أبدًا على ما يقوم به، بعض نقّاد الأدب الفرنسيين، من وضع بوريس في قائمة واحدة، مع اثنين آخرين من أدباء فرنسا الرومانسيين، كانت مصائرهما مرتبطة بالتعاسة والجنون، هما ألفريد دي موسّيه *Musset* وجيرار دي نيرفال *Nerval*.

٥- صلة بوريس بأدب الخيال العلمي

سأذكر هنا باختصار بعض الإحالات الهامة، منها مثلًا:

- الإحالة إلى المؤلف الفرنسي لافونتان، بخصوص الكلب الذي يفكّر ويتكلّم مثل البشر، لكن هذا ليس خيالًا علميًّا.

- بل هو تقليد أدبي قديم، يضع الحكمة في أفواه الحيوانات، منذ زمن الحضارة الإغريقية، حين قام إيسوب بابتكار هذا النوع، من القصص التعليمية القصيرة.

- ثم جاء بعد ذلك كتاب (كليلة ودمنة)، المترجم من السنسكريتية إلى العربية، على يد ابن المقفّع، في القرن الثامن الميلادي.

- وقد ظهر لدى ألفريد دي موسّيه، ذلك الظلّ الأسود، الذي طارد لابيس كلما انفرد بحبيبته، وأسماه بوريس الشبح.

- المرآة التي يمكن أن تكون بابًا إلى عالم آخر، فيمرّ البطل عبرها بين عالمَيْن، سبق أن ظهرت لدى لويس كارول في رواية (آليس في بلاد العجائب).

- هذا طبعًا بالإضافة إلى عملين مشهورين في عالم الخيال العلمي، وهما (رحلة من الأرض إلى القمر) لجول فيرن سنة ١٨٦٥، و(آلة الزمن) لإتش جي ويلز سنة ١٨٩٥.

- هذا بجانب رواية (حرب العوالم) لويلز، الصادرة سنة ١٨٩٨، التي نجد فيها رجالًا من المرّيخ، هبطوا إلى الأرض، وغزوا المناطق الريفية المحيطة بلندن. انتهت هذه الرواية بانتصار البشر على المرّيخيّين، إلّا أن كل العشب الذي داس عليه المرّيخيّون قد تحوّل من اللون الأخضر إلى اللون الأحمر.

- يطلق على (العشب الأحمر) أيضًا أنها رواية من الأدب الرؤيوي *revelatory*، وهو الأدب الذي نجد فيه رؤية سماوية علوية، ويمكن هنا أن نقول إن بداية هذا الأدب الرؤيوي، كانت في (الكوميديا الإلهية) لدانتي سنة ١٣٠٨.

- ظهرت في سنة ١٩٢٨ في فرنسا، رواية (الى الجهة الأخرى)، للأديب الفرنسي محدود الشهرة كلود فارار، الذي يتحدّث أبطالها دائمًا عن (هناك)، وهو العالم الذي لا يستطيع الأحياء الوصول إليه، إلّا عبر الأحلام والرؤى. وفي تطوّر لاحق، استطاع بعض أبطال هذا العمل الذهاب إلى (هناك)، في فترة زمنية مستقبلية، باستعمال آلة الزمن، إلّا أنهم أثناء محاولاتهم العودة إلى (هنا)، باستعمال نفس آلة الزمن، لم يتمكّنوا من التحكّم فيها تمامًا، مما أدّى بهم إلى العودة القهقرى في الزمن، إلى ما قبل العصر الذي كانوا فيه رجالًا ناضجين، بحيث وجدوا أنهم عادوا إلى سنّ طفولتهم.

- أشار بوريس في كتاباته إلى (عالم الماوراء)، على اعتبار أنه شبيه بما أسماه فارار (هناك)، للإجابة عن السؤال (ما الذي يوجد هناك خلف تلك الطبقات الكثيفة من السحب؟)، وهنا نشير إلى معنى آخر للماوراء، غير هذه السحب المادية؛ إذ يعود بوريس إلى ما يمكن تسميته (الماوراء النفسي)، أي أن يكون السؤال هو (ما الذي يوجد خلف تلك الطبقات الكثيفة من الأفكار والمعتقدات، التي ترسخ في ذهن الإنسان وفي نفسه؟).

- إن رواية (العشب الأحمر) في عبارة واحدة، هي رواية البحث في عالم الماوراء، البحث الذي تقوم به نفس حائرة وعقل متشكّك، بروح فكهة عابثة.

- ما ميّز عمل بوريس عن عملي فيرن وويلز، هو أن رواية بوريس ليس بين عالميها الواقعي والخيالي، هذا الحد الفاصل بين الأرض والسماء، فإن الكثير من مواقف رواية بوريس، يمكن اعتبارها خيالية خرافية مستقبلية مجهولة، رغم أن أحداثها تقع على الأرض، وأحداث أخرى تبدو واقعية حقيقية ثابتة متماسكة، رغم أن وقائعها دارت في السماء.

٦- الحركة بين الأمكنة

تدور فضاءات الرواية بين ثلاثة مستويات تقليدية، الأول هو المستوى التحت أرضي، وهو فضاء مريح لأنه يمكن الاختباء فيه، فهو المستوى الذي لجأ إليه وولف وسافير، هروبًا من تجربتهما المؤلمة في شارع الألعاب. الثاني هو المستوى الأرضي، حيث المنزل الذي يقيمان فيه، وإلى جوراه القاعدة المربّعة التي تقف الماكينة عليها، وهو نفسه المستوى الذي تقع فيه شوارع العشّاق المغرمين والألعاب، حيث أمضيا سهرتهما

معًا. إن فضاءات هذا المستوى الثاني، لا تقتصر فقط على الأبطال الأربعة الرئيسين، بل هناك الكثير من الشخصيات الثانوية الدخيلة.

المستوى الثالث هو السماء. وهو العالم الذي يحتوي على ذكريات حياة (وولف). لكن هذا العالم لا تنطبق عليه صورة الفكرة التوراتية عن العالم السمائي، من حيث اقتصاره على الأرباب والملائكة، بل هو أقرب إلى عالمنا الأرضي، وهو ما يتطابق أكثر مع صورة العالم السماوي في الديانات القديمة، مثل الديانة المصرية التي كانت تقول إن عالم الماوراء، يتشابه تمامًا مع عالمنا الأرضي. هناك بيوت فيها حجرات وممرات، وأكشاك خشبية ومكاتب وكراسي ودكك، وحدائق وشواطئ ورمال وبحار وجبال.

٧- الصراع بين الشخصيّات

الصراع الرئيس في هذه الرواية هو بين الرجال والنساء. والعجيب هو أن بوريس ينحاز للنساء على حساب الرجال، فهنّ أكثر ذكاءً من الرجال، وهنّ أقدر على مواجهة المواقف الصعبة من الرجال، وهنّ المنتصرات في نهاية هذا الصراع داخل الرواية، بفضل أنهنّ أكثر واقعية من الرجال. هذا الموقف نحو المرأة، هو الذي يبرّر كيف أن هذا الصراع قد انتهى بفناء الرجلين، وبقاء المرأتين وحدهما على قيد الحياة.

الصراع التالي في الأهمية، هو صراع ذاتي نفسي بين وولف ونفسه. وولف الرجل في مواجهة، وولف الطفل الساذج، و(وولف) المراهق المكبوت، و(وولف) الشاب اليائس. لكننا لا نعرف من مجريات الأمور في هذه الرواية، هل تصالح بوريس مع ذاته، بعد كتابته ونشره هذه

الاعترافات الشخصية؟ داخل نفس وولف، نجد صراعا بينه كمتفائل حالم مغامر مقبل على الحياة، وبينه كمتشائم عازف عن الحياة. قد تكون الحياة الحرّة الطليقة في الغابات، التي تعيشها ذئاب أوروبا، هي التي أوحت إلى بوريس باستعمال كلمة وولف *wolf* (ذئب)، اسمًا لبطل روايته.

كما أن هناك صراعًا ذاتيًّا نفسيًّا، بين لابيس وذاته. صحيح أن كلًّا من وولف ولابيس، يتشابهان من حيث التردّد، وعدم القدرة على اتخاذ القرارات، إلّا أن الفرق بين الصراعين في الحالتين، هو أن ذات لابيس تظهر له، في شكل شبح منفصل جسديًّا عن لابيس.

٨- شخصية لابيس/ سافير

لقد قيل ذات مرّة إن اختيار بوريس، اسم أحجار كريمة، لشخصية صديق البطل في روايته، قد يكون بسبب أن هذين الحجرين الكريمين، السافير (الياقوت) واللابيس (اللازورد)، لهما نفس اللون الأزرق *blue*، الذي يحمله اسم ذلك النوع من الموسيقى (البلوز) *Blues*، الذي ابتكره زنوج أمريكا، للتعبير عن إحساسهم بالكآبة، بسبب الاضطهاد والظلم الاجتماعي، الواقع عليهم من قِبَل البيض. ثم قيل أيضًا إن كونه يحمل اسمين، هو بسبب رغبة المؤلّف في الإفصاح عن كونه ذي شخصيتين منفصلتين منقسمتين *schizophrenia* (سكيزوفرينيا).

الحقيقة هي أن ظهور الشبح لسافير، كلّما حاول أن ينفرد بحبيبته (فولا)، يظلّ دون تفسير واضح محدّد. إلّا أن ارتباط ظهور الشبح بوجود المرأة، يجعلنا نفكّر غالبًا في المضمون الجنسي، ونتساءل هل معنى ظهور هذا الشبح، هو وجود منافس له في حب الفتاة؟ هل هو رمز

لوجود عائق معنوي أو مادي نحو اكتمال فِعل الحب؟ هل كان سافير يشعر بحصار نفسي؟ هل هو عاجز جنسيًّا وغير قادر على إقامة علاقة مع النساء؟ هل الشبح هو القاضي الذي حكم عليه بالموت؟ هل كان سافير مسكونًا بروح شرّيرة؟

إذا كان سارتر قد قال سنة ١٩٤٥ (إن الجحيم هو الآخرون)، وهي بمعنى أن إدانتك تأتي من نظرات الآخرين ومن أحكامهم الظالمة، فهل جاء بوريس فيان بعد ذلك بسنوات قليلة، حوالي سنة ١٩٥٠، ليقول (إن الجحيم هو داخل ذواتنا)؟ هل لهذه العبارة صلة ما، بجملة كان يسوع المسيح قد قالها وسُجّلت في الأناجيل، وهي (إن ملكوت الله هو في داخل نفوسكم)، وملكوت الله هو مملكته، بما فيها من جنة وفردوس ونعيم للأبرار، لكن كذلك بما فيها من نار وجهنّم وجحيم للأشرار؟

٩- شخصية وولف

يظهر ازدواج الشخصية في تصرّفات وولف، أكثر فأكثر مع احتدام الصراع المدمّر، فرغم أنه مخترع كبير، قادر على صناعة ماكينة تذهب إلى الفضاء، إلّا أنه لا يشعر بأي إشباع ذاتي داخله. ويستمرّ القلق الوجودي في مناوشة وولف، رغم أنه يستطيع أحيانًا أن يرفّه عن نفسه بسهرة راقصة بين الأصدقاء، أو بالإنصات إلى موسيقى الجاز في الكهوف، إلّا أن هذا الترفيه لا يترك في نفس البطل إلّا مذاقًا مرًّا.

ثم هناك كذلك الصراع الذي عانى هو منه، مثلما عاني منه أيضًا صديقه وشريكه لابيس، وهو ذلك الصراع الخاص بالموقف من النساء. ففي آخر موقف له في حياته مع امرأة، وهي كارلا الفتاة التي

قابلها على شاطئ البحر، وكانا وحدهما في هذا المحيط الشاسع من المياه والرمال، وكارلا تمثّل الشهوة الجنسية المجسّمة، بجسدها القوي الرشيق البرونزي اللون، تحت أشعة شمس دافئة حارة تعمل على تهييج المشاعر، لكن عدم قدرة وولف على الانفتاح نفسيًّا أمام النساء، كان أقوى من رغباته الجنسية.

هذا هو ما جعل الانطباع الغالب عن شخصية وولف، هو أنه في حالة فشل دائم حتى آخر لحظة في حياته، أنه سيظلّ معقّدًا دون القدرة على الوصول إلى أي حلٍّ. صحيح أنه كانت لديه الرغبة في الاستمتاع بالحياة، إلّا أن إخفاقاته العاطفية المتتالية، وخيبات أمله المتتالية، أوصلته إلى هذه الحالة من اليأس التام.

يمكن هنا استعارة القول بأن وولف يعبّر عن إنسان القرن العشرين، الذي اعتقد لبعض الوقت، أن حياته ستصبح أفضل، مع كل هذه المخترعات العلمية الحديثة، التي كانت حتمًا ستجعل الحياة مريحة سهلة، فإذا به يفقد الأمل في مجرّد البقاء على قيد الحياة، في حربين عالميتين لم تفصل بينهما إلّا سنوات قليلة، كانتا في الأساس بسبب نفس هذه المخترعات العلمية الحديثة.

١٠- نظريّات التحليل النفسي

في منتصف القرن العشرين، انتشرت في الروايات الأوروبية، الشخصيّات الروائية التي تتعرّض في سنّ النضج، إلى الكثير من التصدّع الذي قد يؤدّي إلى انهيار تام، بسبب المشاكل النفسية، التي يكون علاجها ممكنًا، فقط لو اتّبع المحلّل النفسي، أو المؤلّف الروائي،

نفس الأسلوب الذي اتّبعه العالم النفسي النمساوي الشهير سيجموند فرويد، في رأب الصدع بالبحث عن بدايات ظهور هذه المشاكل، عند هذه الشخصيّات، في سنوات التكوين النفسي في الطفولة.

هذا هو ما فعله بوريس هنا بمشكلات بطله وولف النفسية؛ إذ حاول أن يعود به إلى طفولته، وأن يطلب منه أن يذهب إلى أبعد أعماق ممكنة، للوصول إلى جذور المشاكل، وفقًا لنظريّات فرويد. لا شكّ كذلك في شجاعة وولف الذي استطاع أن يدلي بكل هذه الاعترافات، التي كشفت الستار عن الكثير من الذكريات المؤلمة، وعن المعاناة التي تسبّب له فيها والداه ومدرّسوه وقساوسة الكنائس، وأصدقاء الطفولة والمراهقة من الجنسين، باختصار كان وولف ضحيّة عدد كبير من البشر، الذين انتهزوا فرصة ضعفه واستغلّوه، ولو كان هذا الاستغلال فقط عبر السخرية منه ومن براءته وسذاجته.

وهو بالمناسبة عكس الموقف الذي اتخذه مارسيل بروست قبله بسنوات قليلة، في عمله الملحمي (البحث عن الزمن الضائع). فإذا كان بروست قد أصبح خلال السنوات العشرين الأخيرة من عمره طريح الفراش، فقد لجأ إلى إعادة خلق ماضيه، ليجلب له بعض السعادة والعزاء. إلّا أن موقف استجلاب الماضي في حالة بوريس فيان، ليس لاستحضار السعادة، بل لفتح كشوف حسابات لكل من أحاطوا به.

١١- تصفية الحسابات

١ - مع الكنيسة وهي الجهة التي وجّهت إليها الرواية أكثر النقد، بسبب اهتمام الكنيسة بالممارسات والطقوس السطحة الشكلية، أكثر

من اهتمامها بالإنسان الذي يمارس هذه الطقوس.

٢- مع المدرسة، بل ومع النظام التعليمي كلّه، الذي يضيع على الإنسان أجمل سنوات عمره، في محاولة اكتساب معلومات لن ينتفع بها الإنسان طوال حياته، إلّا في مجالات تخصّصات ضيّقة، مثل علوم الجبر والكيمياء.

٣- ثم إن المدرسة تعمل على، إعادة تشكيل كل أفراد المجتمع، في قوالب واحدة متشابهة، فهي لا تقبل الاختلافات، ولا تقبل الابتكار في أساليب التفكير، بل هناك لكل امتحان إجابة نموذجية واحدة، لذلك يجب أن تتشابه كل الإجابات في كل كرّاسات التلاميذ، وهو ما قد يجهض فرص الأطفال في تكوين شخصيّات مستقلّة. هذه هي عادة بداية ما سيمارسونه لاحقًا من نفاق اجتماعي.

٤- وجّهت الرواية نقدًا ساخرًا لنظام الإدارة المحلية، في حفل افتتاح مشروع الماكينة.

٥- السخرية من نظريات التحليل النفسي.

٦- تصفية حسابات المؤلّف مع والديه، ومع نظام التربية الذي فرضاه عليه، بما كان فيه من حماية مبالغ فيها، جعلته لاحقًا في حياته، هشًّا في مواجهة المجتمع.

٧- في نهاية المطاف يصفّي المؤلف حسابه مع نفسه، فعندما لا يجد تبريرًا كافيًا لتصرّفاته، يتجه إلى إدانة نفسه على أنانيّته ونرجسيّته وسلبيّته في الحياة.

١٢- على هامش القصص القصيرة

- المؤلّف بوريس فيان يتألّق في الفكاهة السوداء، أي في المواقف التي تبدأ شبه عادية، ثم تنتهي نهاية مأساوية سوداوية، ويتميّز في كتاباته عامة، بروح دعابة تنقلب إلى قسوة، مع قدر كبير من الشراسة، والرغبة في الخروج عن المألوف، وبرود عاطفة في مواجهة الكوارث مثل الاحتراق أو الانتحار أو الموت.

- اللهو الذي ينقلب إلى مأساة أو كارثة، مثل احتراق الشقّة بنيران عود كبريت يلهو به طفل، ومقتل مراهق بسبب تهوّر مجموعة من المراهقين في مهاجمة رجل عجوز، أو إلقاء شخص بنفسه من الطابق الأخير في ناطحة سحاب نيويوركية، لا لهدف إلّا استرجاع ذكرياته مع شابة نيويوركية عرفها. كأن الراوي لا قلب له، وليست لديه عواطف إنسانية مثل غيره من البشر.

- عدا كل ذلك تبدو في هذه القصص القصيرة، بقية ملامح عالم بوريس فيان الأدبي، مثل السخرية من التقاليد والمعتقدات، ومواجهة عنف المجتمع بنفس العنف، والمواجهة بين جيل الأطفال والشباب من ناحية، مع جيل كبار السنّ من الآباء والأجداد، والهروب من الواقع إلى عوالم خيالية، بواسطة الأحلام السحرية، أو بمحاولة الانتحار.

أولًا في قصّة (الذكريات):

- تتدفّق صور الحياة عند اقتراب لحظة الموت. يتسارع إيقاع ورود صور الذكريات على ذهن المنتحر، مع تسارع إيقاع سقوط جسمه

من ارتفاع ٣٠٠ متر. لكن يحدث خلط كبير بين صور الماضي وصور الحاضر، بسبب اضطرابه الوجداني.

– هل هذه القصّة هي نداء استغاثة؟ فالكلمة *Rappel*، وهي عنوان القصّة، يمكن ترجمتها بالذكرى، أو التذكّر، كما أنها نفس الكلمة التي كانت تطلق على نداء الاستغاثة، التي يستعملها متسلّقو جبال الألب، في شكل صفير متصل يصدر عن آلة صغيرة يحملونها معهم، ويطلقونها في حالة احتياجهم إلى نجدة مستعجلة.

– هناك العديد من الحوارات، بين بطل هذه القصّة القصيرة وبين بعض الأشخاص، بالإضافة إلى حوارات داخلية بينه وبين نفسه.

– لكن هذه القصّة (الذكريات) تدلّ أيضًا، على مدى تأثير الثقافة الأمريكية في طريقة بوريس فيان في التفكير، فالمكان هو ناطحة سحاب نيويوركية، والأحداث التي ترويها الذكريات، تدور في الملاهي الليلية والشواطئ النيويوركية.

– نلاحظ في مفردات هذه القصّة، بالإضافة إلى ما ورد كذلك في رواية (العشب الأحمر)، أن المؤلّف لم يكن يتورّع عن استعمال كلمتي (زنجي) و(أسود)، وهما الكلمتان اللتان بطل استعمالهما لاحقًا، بسبب أنهما قد اعتبرتا دالتين على التعصّب العِرْقي *ethnic discrimination*، ويستعمل بدلًا منهما الآن التعبير (أمريكي من أصول أفريقية) *African American*.

ثانيًا في قصّة (رجال المطافئ):

- تبدو نهايتها غامضة، فالأب يتعامل مع النيران ببرود ولا مبالاة جديرين بشخص غير واقعي، لا يدرك حقيقة الموقف. عناصر التشويق تستمر إلى آخر سطر، حيث لا يعرف القارئ ماذا سيحدث للشقّة التي تلتهمها النيران، خاصة بسبب تعامل الأبّ مع الموقف بمنتهى البرود.

- تشير قصّة (رجال المطافئ) إلى الفشل الذي عاناه بوريس في تربية طفله باتريك، فهو لم يكن يريد أن يعامل ابنه، بنفس الطريقة التي عامله بها والداه، من حرص شديد عليه وتأنيب مستمر له. لذلك هو ذهب إلى أقصى الطرف الآخر، بترك الحرّية المطلقة لهذا الابن، دون أيّ مراجعة، وبلا مبالاة شديدة.

- أعتقد شخصيًّا أن نشر هذه القصص، هو الذي أوحى إلى أحد أهمّ مؤلّفي مسرح اللا معقول، وهو الكاتب يوجين أونيسكو *Ionesco*، بشخصية رجل المطافئ، في نصّه المسرحي الأول المعروف باسم (المغنّية الصلعاء) *la cantatrice chauve/ the bald soprano*.

ثالثًا في قصّة (المتقاعد):

- العنوان قد لا يشير فقط، إلى من أنهوا تاريخهم الوظيفي، وبقوا في منازلهم ينتظرون الموت، بل هو يشير كذلك إلى غير المتأقلمين مع الحياة بشكل عام، المتقاعدين المتقاعسين إراديًّا أو بشكل غير إرادي عن التفاعل مع الحياة.

- إلّا أن موقف المراهقين العفاريت من العجوز، يشبه موقف الطفل في (رجال المطافئ) من حيث اللعب بالنار، وعدم إدراك النتائج المترتّبة على اللعب بالنار. تبدو هنا بوضوح رغبة المؤلّف بوريس فيان، في قيام الصغار بالانتقام من الكبار، المسؤولين في رأيه عن كل المتاعب التي لقيها في حياته.

- ثم إن فكرة سخرية الأطفال من رجل عجوز، يبدو غير قادر على الدفاع عن نفسه، بالقفز فوق كتفيه وإيقاعه على الأرض، تعود من جديد في رواية أخرى لبوريس فيان، تعرف بعنوان (نازع القلوب).

- إلّا أن المفاجأة الأخيرة بردّ فعل العجوز البالغ العنف، الذي يقتل الصبيّ بدمّ بارد، هو نفس الموقف اليائس المتشائم، من جدوى المشاعر الإنسانية، الذي يبدو في أعمال مؤلّفين آخرين، تقريبًا من نفس الفترة الزمنية، وهما كافكا التشيكي في مجمل أعماله، ومالرو الفرنسي خاصة في عمله (الحالة الإنسانية) *la condition humaine*.

❊ ❊ ❊

العشب الأحمر

لا أحد يعرف على وجه التحديد كيف استطاع بوريس فيان خلال سنوات عمره القصير التي لم تكمل الأربعين أن يكون كل هؤلاء: الكاتب، الشاعر، الشاعر الغنائي، الرسام، الصحفي، الموسيقي، الملحن، المهندس وغيرها من الحيوات المتوازية. بل إن فيان، الشاب الوسيم الذي انتهك جسده المرض منذ كان طفلا، كان صاحب تأثير حقيقي على مشهد موسيقى الجاز في وقته.

نشر بوريس فيان أعمالا أدبية تحت اسمه وتحت أسماء فنية مستعارة وكأنه كان يحاول مضاعفة سنوات حياته بينما يشعر بدنو الأجل. وحين مات فيان كان يجب أن تكون ميتته كحياته عجيبة من الأعاجيب، فمات في السينما وهو يشاهد عرضا تجريبيا لفيلم مأخوذ عن واحدة من رواياته الشهيرة.
خلال حياة بوريس فيان اشتهرت الروايات التي لم يضع عليها اسمه الحقيقي، بينما الروايات التي وضع عليها اسمه مؤمنا بثقلها الأدبي فشلت تجاريا في حياته وازدهرت فقط بعد وفاته وتم تقديرها من النقاد والجمهور.

العشب الأحمر رواية شهيرة لبوريس فيان، تحمل الكثير من ثقله الأدبي وسخريته السوداء، وتقدم لنا عالما جديدا من المغامرة، التشويق، الفانتازيا والخيال العلمي حيث آلة الزمن تقوم بمهام مختلفة عما اعتدناه منها.

ISBN 978-977-765-233-9

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS